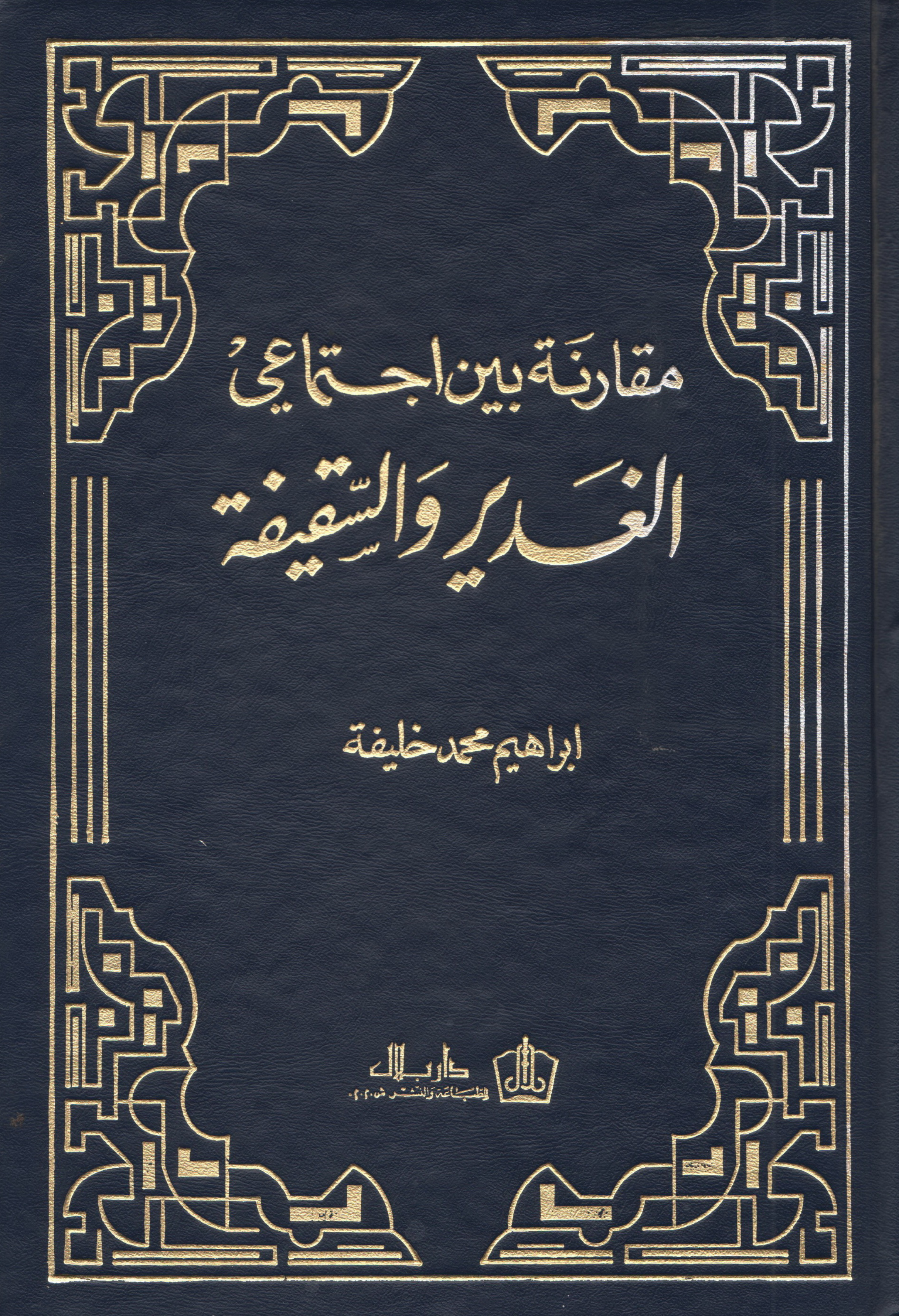

مقارنة بين اجتماعي
الغدير والسقيفة
ابراهيم محمد خليفة
دار بلال
للطباعة والنشر ش.م.م.



مقارنة بين اجتماعي

الغدير والسقيفة

ابراهيم محمد خليفة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَنَّ هـذا صِراطي مُسْتَقِيمَاً فاتَّبِعُـوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُـلَ فَتفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِه ذلِكُم وصَّاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

آية ١٥٣ سورة الأنعام

«الاهداء»

إليك يا إشعاع الفكر وينبوع الحكمة.
إليك يا ملاذ المنكوبين والمحرومين.
إليك يا بطل الاسلام الخالد.
إليكَ يا منتهى الكمال البشري.
إليك يا أمام المتقين.
إليك يا علي بن أبي طالب.
إلى مقامك العظيم أهدي هذا البحث المتواضع. فكن «سيدي لوالدتي ولوالدي العزيزين «شفيعاً يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

الفهرس

«المقدمة»

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وآله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً سيّما خليفة الله في أرضه وحجته على خلقه خاتم أوصياء الرسول الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر (عليه السلام وعجل الله تعالى ظهوره الشريف).

حينما نبحث عن اجتماعي الغدير والسقيفة فإنما نبحث عن أهم حدثين في الإسلام: حَدَث جاء يحمل في طياته سبب بقاء الأمة وشموخها وامتداد سلطانها وانتشار مثلها العليا حتى تصل جميع أرجاء الدنيا لتملأها قسطاً وعدلاً، ويواصل مسيرة النور والهدى التي بدأها الرسول الأعظم (ص). والتي مهد لها جميع من تقدم من الأنبياء والأوصياء والصالحين. . .

وحَدَث جاء يحمل في طيّاته كل وسائل الهدم والانحراف. . . جاء يستهدف تلك المثل العليا، وذلك البناء الإنساني الشامخ الذي شيده الرسول الأعظم (ص) وآل بيته (ع) ومن تبعهم من المؤمنين، فقد شيدوه بدمائهم الزكية، وتضحياتهم وجهادهم المرير.

حَدَث جاء ليجسد كفاح العظماء والمصلحين الذين ساهموا في وضع أسس الفكر الإنساني ومقومات الحضارة الاجتماعية بعد بلورة القضايا المصيرية لجميع شعوب الأرض. . في حين جاء الحدث الآخر ليجعل من الإنسان عبداً لشهواته وأسيراً لرغباته وغرائزه.

حدث جاء ليتم مسيرة القادة المصلحين الذين حققوا معاجز عظيمة على مسرح الحياة، وقادوا الإنسانية نحو أهدافها وآمالها، ودفعوا بها إلى إيجاد مجتمع متوازن تتحقق فيه الفرص المتكافئة التي ينعم فيها الناس على اختلاف قومياتهم وأديانهم.

وحدث جاء ليشيع الظلم والجور والاستبداد، وليوغل في اضطهاد الناس واستعبادهم لسلطان العصبيات القبلية وآلهة الدول التي غرقت في لياليها الحمراء.

حدث جاء ليجسد كفاح هابيل الصفوة، وإبراهيم الخليل، وموسى الكليم وعيسى الكلمة، ومحمد الرحمة لإحقاق الحق ونشر العدل والحرية في ربوع الأرض... في حين كان الحدث الآخر حلقة من مسلسل البغي والعدوان على إنسانية الإنسان الذي لعب أدواره قابيل، ونمرود وأمثالهم من مستكبري ومتجبري التاريخ البشري.

حدث كان يمثل عنصر الخير وله علاقة بالآية الكريمة: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً**﴾

وحدث كان يمثل عنصر الشر وله علاقة بالآية الكريمة: ﴿**وَمَا مُحَمدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾.

لقد جاءَ اجتماع الغدير مجسداً للقرار الرباني المتخذ في الملأ الأعلى والمنزّل من السماوات العلى بشرى للذين آمنوا... بشرى الخير والسعادة وانعقد برعاية سيد الكائنات القائم بأمر الله الرسول الأمجد (ص). أما الآخر «وأعني به أجتماع السقيفة» جاء ليخلق في

أجـواء الأمة قـواعد للبـاطل، وخـلايـا للظلم، وأوكـاراً للطغيـان، وكـان صاحب القرار فيه طغمة من الشهويين والتجار الطامعين في المال والجـاه والسلطان.

لقـد أوكل اجتمـاع الغديـر مسؤولية صيـانة ورعـايـة واستمـراريـة الحكـومة الإسـلامية التي شيـدها الـرسول الأعـظم (ص) إلى المعصـوم الذي هو امتداد طبيعي له بوصفه إنسان عقائدي بلغ في مستواه العقـائدي درجـة العصمة من الانحـراف والخطأ... أمـا اجتماع السقيفـة الذي لم يحظ بتأييد من الجماهير ولا من أصحاب الحل والعقد أحـدث انقلابـاً ضـد ما أقـره الرسـول بأمـر السماء للمعصـوم هـز المثـل العليـا، وطعن النبي (ص) طعنةً نجلاء وهو في رمسه.

أجل لقد أسند اجتماع الغدير أمر الخلافة بعد وفـاة الرسـول (ص) إلى الإمام أمير المؤمنين (ع)، وكان من المفروض أن تكون هذه القيادة الربانية تتسلسل في الأئمة الإثني عشـر (ع) الذين مـدحهم الله تبارك وتعـالى في سورة الدهر، وفرض مودتهم في القرآن المجيد لقوله: ﴿**قُلْ لَا اسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ في القُرْبَى**﴾.

ولم يساوهم بباقي الناس لما حرم عليهم الصدقة وما هـذا التحريم إلَّا لكـرامتهم وعـظمـة شـأنهم عنـده سبحـانـه، ولهـذا يقـول أميـر المؤمنين (ع): «نحن أهـل بيت لا يقاس بنـا أحد من النـاس»[1]. وإنما تتسلسل القيادة الربانيـة في أئمة أهـل البيت (ع) لكونهم أشخـاصاً بلغوا أعلى درجات الكمال في القوتين العلمية والعملية ولا نعني بالعصمـة إلا ذلك.

(١) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ١/١٥١.

وعصمة أئمة أهل البيت (ع) نص عليها القرآن المجيد والسنة المطهرة، كما نصت عليها سيرتهم المشرقة، حيث لا محل للباطل والأهواء في أقوالهم وأفعالهم وتروكهم وأحكامهم. إن وجود الأئمة للحياة كان ضرورة عظمى، ويمكن تحديد هذا الوجود بالأمور التالية:

١ ـ ضرورة تكوينية. وإدارة شؤون الكون.

٢ ـ ضرورة التشريع. وبيان الأحكام.

٣ ـ ضرورة القيادة. وممارسة التغيير العملي للقيادة.

يقول الإمام الرضا (ع).. وهو يكشف عن ضرورة وجود الأئمة (ع) للحياة ومسؤولياتهم.. إن الإمامة منزلة الأنبياء، وارث الأوصياء وهي خلافة الله، وخلافة رسول الله (ص)، ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين.

إن أولياء الأمر بعد رسول الله (ص). هم من كانت قواهم العقلية وافية بمعارضة قواهم الشهوية. هم من فسروا لغز الحياة، والكون، والإنسان. هم أئمة أهل البيت (ع). ومن قال بخلاف ذلك فقد انحرف عن تعاليم السماء التي جعلت حضراً على ولاية الإنسان العادي لأنه لا يقدر على كسر نفسه عند الشهوات، ولا يزعها عند الجمحات، فهو مذنب وكل مذنب ظالم، والظالم لا يناله عهد الله تبارك وتعالى لقوله: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾. والمراد بالعهد هنا الإمامة لقوله: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾.

ولا بد من إمامٍ هاد يقوم بوظائف النبي (ص) ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن المحافظة على الدين بفرض الحلال

حـلالاً. وفرض الحـرام حراماً على النـاس، والـدفـاع عن الـدين ضـد العابثين، وأتباع الشهوات والدعوة إلى الدين؛ كل ذلك من شؤون أئمـة أهل البيت (ع) لأنه في الواقع خارج عن قدرة الآخـرين لجهلهم بالـدين ولخضـوعهم للرغبات والشهـوات، ولذا يقـول الرسـول (ص): «في كل خلفٍ من أمتي عـدول من أهل بيتي ينفـون عن الدين تحـريف الضـالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين..»[1].

بعـد وفاة الـرسول (ص). كـانت الأمة تمـارس حياتهـا السيـاسيـة والاجتماعية على أساس اطروحتين:

اطروحة ـ استمدت أصولها من أجتماع الغدير ـ سـار عليها الإمـام أمير المؤمنين في حكمه.

واطروحة ـ استمـدت أصولهـا من اجتماع السقيفـة ـ سارت عليهـا حكومة أبي بكر وعمر وعثمان.

حكومة الإمـام (ع) كانت تـرى أن المال مـال الله والناس سـواسية والمسلمين كلهم عبيـد الله لا فـرق بين قـرشيهم وعـربيهم وبين عـربيهم وأعجميهم وبين مسلمٍ ومسلمٍ آخر.

أما حكومـة الخلفاء الثـلاثة كـانت تنظر إلى الأمـة على أنها قـطيع تتحكم فيـه كيفما تشـاء وأرض الإســلام مـزرعــة ينتفـع بخيــراتهـا من تشاء وتحرم من خيراتها من تشاء.

حكـومة الإمـام أمير المؤمنين (ع) سـاوت بين الأمـة في العـطاء، ومنحت للناس كافة الحريات، وأسندت أمر الأقاليم الإسلامية إلى رجـال من أهل الدين والفقه والحزم، واهتمت بشؤون التـربية والتعليم وجعلت التقوى هي القاعدة للتكريم.

(١) أخرجه البيهقي في المدخل كما في مشكاة المصابيح (ص ٣٦).

أما حكومة الخلفاء الثلاثة فقد استعانت بالمنحرفين وغير الكفوئين في شؤون الأمة في الإدارة والقضاء، وميزت بين المسلمين في العطاء وجعلت الروح العشائرية والقبلية هي القاعدة للتكريم، وصادرت الحريات، ولم يذكر التاريخ الإسلامي أنها اهتمت بأمور التعليم وشؤون التربية. ولا بد لنا ونحن نستعرض العمل السياسي والاجتماعي والإداري والقضائي لحكومة الخلفاء الثلاثة وحكومة الإمام أمير المؤمنين أن نعتمد النصوص التاريخية الصحيحة من التعرف على خصائص عملهم، وخصائص المراحل التاريخية التي مروا بها، حذراً من الانجرار وراء العواطف المذهبية.

فالتاريخ الصحيح دليلنا ومرشدنا في محاولتنا لفهم الحكومتين.

وقائع اجتماع الغدير

لمّا علم الرسول (ص) بقرب رحيله عن هذه الدنيا إلى جوار ربّه شدَّ الرحيل إلى بيت الله الحرام ليجتمع بالمسلمين ويبين لهم الأسس التي تضمن وحدتهم وتشيع المحبة والإخاء بينهم وتحصّنهم ضد الزيغ والانحراف.

ولمّا انتهى من مراسيم حجته الأخيرة التي عرفت بحجة الوداع أخذ يُعلم الوافدين إلى بيت الله الحرام أن لقاءه الشريف بهم هذا العام هو آخر لقاء قائلاً: «إني لا أدري لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً..» ثم أخذ يطوف بين الجماهير ويعرفهم الوسيلة التي تحقق لهم السعادة في الدارين قائلاً: «يا أيها الناس إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي..»[1].

بعد ذلك وقف (ص) عند بئر زمزم وأمر شاباً اسمه ربيعة بن أمية بن خلف قائلاً له: يا ربيعة قل: «يا أيها الناس إن رسول الله يقول لكم: لعلكم لا تلقوني على مثل حالي هذه وعليكم هذا، هل تدرون أي بلدٍ هذا؟ وهل تدرون أي شهرٍ هذا؟ وهل تدرون أي يومٍ هذا؟.

فقال الناس: نعم هذا البلد الحرام، والشهر الحرام، واليوم الحرام.

(١) صحيح الترمذي ٣/٣٠٨

فقال لهم رسول الله (ص): «إن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وكحرمة يومكم هذا، ألا هل بلّغت؟ . . ».

قالوا: نعم.

فقال (ص): اللّهم اشهد.

ثم قال (ص): إن المسلم أخو المسلم لا يغشه ولا يخونه ولا يغتابه ولا يحل له دمه ولا شيء من ماله إلاّ بطيب نفسهِ ألا هل بلّغت؟.

قالوا: نعم.

فقال (ص): اللهم اشهد.

بعد ذلك ختم (ص) خطابه القيّم الذي أوضح في خلاله تعاليم السماء قائلاً: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً مضلّلين يملك بعضكم رقابَ بعض إني خلّفت فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلّوا، كتاب اللهوعترتي أهل بيتي». ثم أمر الناس بالالتزام بما أعلنه وأودعه فيهم قائلاً: «إنكم مسؤولون فليبلغ الشاهد الغائب»[1].

بعد ذلك غادر (ص) مكة المكرمة قاصداً يثرب. . غادر مكّة بعد أن بيّن للناس البنود المشرقة في عالم التشريع، ونصّب القادة من أهل بيته(ع). ولمّا وصل موكبه المقدس غدير خُم هبط عليه أمين وحيٍ الله حاملاً معه رسالة من السماء فيها طابع من الشّدة تأمره بأن يحطّ رحله ليقوم بأداء المهمة التي أُوكلت إليه. . وهي تنصيب الإمام علي (ع) خليفةً ومرجعاً للأمة من بعده، وكانت أوامر السماء تلزم النبي بالاسراع في إذاعة ذلك بين المسلمين، ﴿يَا أَيُّها الرُّسُولُ بَلّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيكَ مِن

(١) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٩٠ ـ ٩٣.

ربِّكَ وَإن لَمْ تَفْعَل فَما بَلّغتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس﴾[1].

نعم إن الشيء الذي طالما نوّه عنه الحبيب المصطفى (ص) في شوارع مكة وأزقتها في اجتماع. . وانذر عشيرتك الأقربين. . في ارتحاله من مكّة إلى المدينة في حديث المنزله وفي مواطن أخرى تنويهاً وتصريحاً. . إنها خلافة الإمام علي (ع) التي جاء أمر السماء في هذه المرة صريحاً للاعلان بها دون تخوف أو إشارة أو تنويه بل: يا أيها الرسول بلّغ. . . لقد أُنذر النبيَّ (ص) الذي لاقى ما لاقى من المحن والآلام في سبيل هذا الدين إنه إذا لم ينفذ ما أُمِرَ به فقد ذهبت أتعابه، وضاعت جهوده، وتبدد ما لاقاه، لذا انبرى (ص) بعزيمة راسخة وإرادة صلبة إلى تنفيذ أوامر السماء فوضع عبء السفر وحطَّ رحله في رمضاء الهجير وأمر الناس أن تفعل مثل ذلك وكان الوقت قاسياً في حرارته حتى أن الرجل كان يضع طرفاً من ردائه تحت قدمه والطرف الآخر فوق رأسه ليتقي حرارة الشمس، وقد أمر (ص) أن توضع له أقتاب الإبل لتكون منبراً له ففعلوا له ذلك. فاعتلى عليها وكان عدد الحاضرين. . حسب ما ذكر المؤرخون مائة ألف أو أكثر وأقبل الحاضرون بقلوبهم نحو معلمهم العظيم ليسمعوا ما يقول، فبين ما لاقاه في سبيل هدايتهم وانتشالهم من العبودية والجهل والفقر والحرمان إلى الحياة الحرة الكريمة في ظل الإسلام، كما ذكّرهم ببعض الأحكام الدينية وألزمهم العمل بها.

ثم قال لهم: «أنظروا كيف تخلفوني في الثقلين».

فناداه منادٍ من القوم.

«ما الثقلان يا رسول الله؟».

فقال (ص): «الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عزَّ وجل وطرف

---

(١) سورة المائدة نص على نزولها في غدير خم الواحدي في اسباب النزول والرازي في تفسيره وغيرهما.

بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي وأن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فسألت ذلك ربّي فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تصدوا عنهما فتهلكوا...». وإنما كان رسول الله (ص) يدعو الأمة في كل محطة من محطات مسيرته المشرقة بالتمسك من بعده بالثقلين كتاب الله وعترته أهل بيته لعلمهِ بأنهما الوسيلة إلى الله تبارك وتعالى.

بعد ذلك أخذ بيدِ باب مدينة علمه الإمام عليّ (عليه السلام) ليَعرض ولايته على الناس جميعاً وقد رفعه حتى بان بياض أبطيهما ونظر إليهما جميع الناس، فرفع النبي (ص) صوته قائلاً: «يا أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟».

فقالوا: «الله ورسوله أعلم».

فقال (ص): «إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليّ مولاه». ردّد ذلك ثلاثاً أو أكثر.

بعد ذلك قال (ص): «اللهم والي من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وأنصر من نصره، وأخذل من خذله، وادر الحق معه حيث دار ألا فليبلغ الشاهد الغائب...».

وهكذا أنجز الرسول الأعظم (ص) رغبة السماء في تنصيب الإمام علي (ع) أميناً عاماً للرسالة وخليفة للأمة من بعده، فقد خطا بذلك الخطوة الأخيرة في صيانة أمتِه من الزيغ والفتن، وحاشى لمن بعث رحمة للعالمين أن يترك أمته طعمةً للفتن والانحراف. وأقبل المسلمون لمبايعة الإمام عليّ (ع) بالخلافة، وأخذوا يهنئونه بأمرة المسلمين، وقد أمر (ص) أمهات المؤمنين أن يذهبن لتهنئته ففعلن ذلك[1]، وكان من بين

(١) الغدير ٢/ ٣٤.

المبايعين للإمام علي (ع) عمر بن الخطاب حيث هنأه وصافحه وقال له: «هنيئاً يا بن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»(١).

وبعد أن نصب الرسول الأعظم (ص) الإمام علي (ع) خليفة للأمة من بعده نزل في ذلك اليوم الخالد في دنيا الإسلام قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾(٢) وهكذا أكمل الله تبارك وتعالى دينه بولاية علي بن أبي طالب (ع) هذه الولاية التي أنارت قلب الإنسان بالعلم والعرفان وأثارت طاقته وقواه لتنشط في الحق والخير، وترسم له المثل الأعلى كي لا يخطيء الهدف أو يضل الطريق، فالإيمان بها له أكبر الأثر في النفس الإنسانية حيث تمدّها بعوامل القوة ضد ويلات الدهر كما تهبها الطمأنينة لتصمد أمام ما يصادفها من كوارث وأهوال، وتحصنها ضد النزوات والشهوات.

إن ولاية أمير المؤمنين (ع) رأس الإيمان، وزمام الإسلام، ونور الأبصار، وشفاء الصدور، وأماناً من الشر والبلاء، وهدى من الضلال، ونعمة لا ترتقي إليها نعمة، وأماناً من غضب الله، كما أنها منتهى المكارم الأخلاقية، بدونها يتحول الإنسان في ممارساته إلى أدنى مستوى من البهائم، وتتغلب عليه قواه الغضبية فيكون في ظلمه وبغيه وعداوته وانتقامه أضرى من الوحوش.

---

(١) مسند أحمد ٤/٣٨١.

(٢) سورة المائدة ذكر نزولها في الغدير الخطيب البغدادي في تأريخه ٨/١٩٠ والسيوطي في الدر المنثور.

«بعض خصائص شخصيته الإمام علي (ع)»

إن فضائل الإمام علي (ع) بلغت من العظم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يجعلنا عاجزين عن تناولها وتفصيلها،

وما أقول في رجلٍ قد اختاره الله تبارك وتعالى ليكون شاهداً معه على نبوة خاتم الأنبياء (ص) لقوله: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لستَ مُرْسِلاً قُلْ كَفَى بِالله شَهيداً بَيني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَه عِلْمُ الكتابِ﴾**.

وما أقول في رجلٍ قال عنه الحبيب المصطفى (ص): «هذا رجلٌ لا يعرفه إلاَّ الله وأنا..».

فصفاته الظاهرة ومناقبه الباهره التي رواها العامة والخاصة في كتبهم وصحاحهم هي نصوص صريحة على أحقيتهِ بالخلافة من غيره.

قال عنه الخليل بن أحمد النحوي: احتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنه إمام الكل. ولما «سئل عن مدحه فقال: (ما أقول في رجلٍ كتم احباؤه فضائله خوفاً من اعدائه. وكتم حساده مناقبه حسداً له وخرج من بين هذين ما ملأ الخافقين).

ولم يستطع أحد من الناس أن يصل إلى كنه معرفة شخصيته وغور بحرها، فهو رجل تعزى إليه كل فضيلة وتنتمي إليه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة.

لقد ولد الإمام علي في الكعبة... وهو المولود الوحيد فيها، ونشأ في حضن الرسالة، وتغذى من كمال النبوة، وسار على خطا الرسول

فتعلم منه سائر العبادات، وأخذ عنه العلم والمعرفة، وبلاغة القول، وقد بلغ من سجاحة الأخلاق وبشرة الوجه حداً لم يبلغه أحد من الناس إلاَّ معلمه سيد الكائنات (ص).

قال عنه صعصعة بن صوحان العبدي: كان فينا كأحدنا لين جانب وشدة تواضع، وسهولة قياد، ومع ذلك كنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه.

وفيما يلي بعض مظاهر شخصيته الفذة:

حلمه:

لقد كان الإمام (ع) قمة في حلمه وعفوه عمن أساء إليه فهو لا يعرف الغضب إلاَّ حين ينتهك للحق حرمة أو تتعدى لله حدود أو يتعدى على حقوق الأمة، وخلقه في الحلم والصفح لم يتغير فعلي في صفحه وحلمه قبل خلافته كعلي في صفحه وعفوه أيام قيادته لأمته على ان عظمته (ع) تزداد قوة حين يظل يصفح ويمعن في عفوه حتى عن ألد خصومه في وقت يمتلك القدرة على العقاب.

تواضعه:

لقد كان الإمام (ع) قمة في تواضعه يقول المؤرخون: أنه كان الحاكم العام للبلاد الإسلامية ويذهب بنفسه الشريفة إلى السوق ليشتري حاجته وحاجة اسرته، ولما يراه أحد من رعيته حاملاً حاجاته بيده يسارع لمساعدته فيأبى عليه ذلك ويقول: رب العيال أحق بحمل حاجاتهم.

سخاؤه:

لقد نسج معاوية ما نسج من الأكاذيب والافتراءات ضد أمير المؤمنين غير أنه لم يستطع ان ينكر جوده وسخاؤه فقد قال له مخفى بن

مخفى الضبي يوماً. جئتك من عند أبخل الناس فقال معاوية ويحك كيف تقول انه ابخل الناس. ان علياً لو ملك بيتين بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفق تبره قبل تبنه.

وسخاء الإمام علي (ع) اثنت عليه السماء ورسمت أبعاد ثوابه. ففي حادثة اطعام علي (ع) وأهل بيته (ع) للمسكين واليتيم والأسير على مدى ثلاثة أيام وايثارهم لهم على أنفسهم. واكتفائهم بالماء: وهم في أيام صوم متتالية. نزلت آيات الله سبحانه مسجلة أعظم مآثر علي (ع) في ضمير الوجود. حيث ستبقى ترددها الآفاق. والألسنة وصفحات المجد ما شاء الله تعالى وإليكم قوله تعالى: ﴿**وَيُطْعِمون الطَعَام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نُطْعِمكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءٍ وَلاَ شُكُورَاً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِنَا يَوْماً عَبُوسَاً قَمطرِيراً. فَوقاهُمْ اللهُ شَر ذَلِكَ اليَوْم وَلَقاهُمْ نَظْرةً وَسُرُوراً. وَجَزاهُمْ بِمَا صَبِرُوا جنةً وَحَرِيراً**﴾.

علمه:

إذا نظرنا إلى علمه وجدناه العالم الرباني الذي أعلن على ملأ الناس بقوله (سلوني قبل أن تفقدوني)، هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول اللهوهذا ما زقني رسول الله زقاً).

فاسألوني فإن عندي علم الأولين والآخرين.. والله لو ثنيت لي الوسادة ثم اجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الانجيل بانجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى ينادي كل كتاب بأن علياً حكم فيَّ بحكم الله.

يقول الإمام الصادق (ع): علمُنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الاسماع، وإن عندنا الجفر الأحمر والجفر الأبيض ومصحف

فاطمة، وعندنا الجامعة فيها جميع ما تحتاج الناس إليه، فسئل عن تفسير هذا الكلام.

فقال (ع): أما الغابر فالعلم بما يكون.

وأما المزبور فالعلم بما كان.

وأما النكت في القلوب فهو الألهام، وأما النقر في الاسماع فحديث الملائكة نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم.

وأما الجفر الأحمر فوعاء فيه سلاح رسول الله (ص) ولن يخرج حتى يقوم قائمنا أهل البيت.

وأما مصحف فاطمة (عليها السلام) ففيه ما يكون من حادث وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة.

وأما الجامعة فهو كتاب طوله سبعون ذراعاً أملأ رسول الله (ص) من خُلقَ فيه وخط علي بن أبي طالب (ع) بيمينه فيها والله جميع ما تحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة حتى ان فيه ارش الخدش والجلده ونصف الجلدة.

للإمام علي (ع) في كلِ علمٍ رعودٌ وبروق.

ففي العقائد يتناول أمور الدين، وعالم ما وراء الطبيعة ويتحدث عن الله جل جلاله: ذاته وصفاته، وافعاله كما يتحدث عن الوحي والتنزيل ويتحدث عن الأنبياء والرسل ووظائفهم وعصمتهم، ويتحدث عن الملائكة والروح والجزاء على الخير والشر، والجنة والنار ومصير الحياة، كما يتناول جميع الفضائل والآداب.

وفي الشرائع له قضايا وأحكام وأجوبة مسائل عجيبة منها ما وقع في حياة الرسول (ص) ومنها في عهد الخلفاء الثلاثة ومنها في خلافته،

فما كان في عهد الخلفاء (يُـروى) إن رجلاً رُفـع إلى أبي بكر وقـد شرب الخمـر، فأراد أن يقيـم عليـه الحـد فقـال لـه إني شـربتهـا ولا علم لي بتحريمها لأني نشأت بين قوم يستحلونها ولم أعلم بتحريمهـا حتى الآن، فارتجَ على أبي بكر الأمر بالحكم عليه ولم يعلم وجه القضاء فيه، فأشـار عليــه البعض من حضـر أن يستخبــر أميـر المؤمنين (ع) عن الحكم في ذلك، فأرسل إليه من يسأله عنـه، فقال الإمـام (ع): مر رجلين ثقتين من المسلمين يطوفان به على مجالس المهـاجرين والأنصـار ويناشـدانهم هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بـذلك عن رسـول الله (ص) فان شهد بذلـك رجلان منهم[1] فـاقم عليه الحـد وإن لم يشهد أحـد بذلـك فأستتبه وخلِّ سبيله، ففعل ذلك أبو بكر، فلم يشهد أحـد من المهاجـرين والأنصار أنه تلا عليه آيـة التحريم ولا أخبـره عن رسول الله (ص) بـذلك فأستتابه أبو بكر وخلّى عنه سبيله وسلم لعلي في القضاء به.

وذكر المحب الطبري) في الريـاض النظره ج **٣** ص **١٩٥** عن زيـد ابن علي عن أبيه عن جده قال أتى عمر بأمرأة حامل قد اعترفت بـالفجور فأمر برجمها فتلقاها علي (ع) فقـال ما بـال هذه فقـالوا أمـر عمر بـرجمها فردّها علي (ع) وقال هذا سلطانك عليها فما سلطانك على مـا في بطنهـا ولعلّك انتهـرتها وأخفتهـا، قال قـد كان ذلـك، قال أو مـا سمعت رسول الله (ص) قال: لا حدّ على معتـرف بعد بـلاء انه من قيِّـد، أو حبس، أو تهدد فلا إقرار له فخلِّ سبيلها (قال) أخرجه ابن السمان الموافقة.

(صحيـح) أبي داود ج **٣٨** ص **١٤٧** باب المجنـون أو يصيب حداً (روى بسنـده) عن أبي ضبيان عن ابن عبـاس قال أتى عمـر بمجنونـة قد زنت فأستشار فيها أناسـاً فأمـر بها عمـر أن ترجم، فمـر بها على علي بن

---

(١) الارشاد (ص) ٩٥.

أبي طالب (ع) فقال ما شأن هذه قالوا مجنونة بني فلان زنت فأمر بهـا أن ترجم قال فقال أرجعوا بهـا ثم أتاه فقـال يا عمـر أما علمت إن القلم قـد رفـع عن ثلاثـة عن المجنون حتى يبـرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل قال بلى، قـال فما بـال هذه تـرجم، قال لاشي، قـال فارسلها، قال فجعل يكّبر.

(أقـول) ورواه في المذكـور بطرق عـديدة قـال بعضها فجعـل عمر يكبّر (وذكره) المناوي أيضاً في فيض القدير ج ٤ وقال أخرجه أحمد وقال في آخره فقال عمر: لولا علي لهلك عمر.

وروى الـدارقطني وابن عسـاكر: إن رجلين أتيـا عمر بن الخـطاب وسألاه عن طلاق الأمة، فقام معهمـا فمشى حتى أتى حلقة من المسجـد فيها رجل أصلع فقال: أيها الأصلع ما ترى في طلاق الأمة؟ فـرفع رأسـهُ إليـه ثم أومأ إليـه بالسبـابة والـوسطى فقـال لهما عمـر: تطليقتـان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناك وأنت أميـر المؤمنين فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومأ إليك فقال لهما: تدريـان من هذا؟ قالا: لا قال: هذا علي بن أبي طالب أشهد على رسـول الله (ص) لسمعته وهو يقـول: إن السماوات والأرضين السبـع لو وضعـا في كفّة ثم وضع إيمان علي في كفّة، لرجح إيمان علي بن أبي طالب.

وروى الإمـام مـالـك في كتـابـه الأشـربـه (ص ١٨٦) إن عمـر بن الخطاب استشار في الخمر يشربها الرجل فقال لـه علي بن أبي طالب أن يجلد ثمانين جلده فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى وإذا هذى افترى وإذا افترى (أو كما قال) فجلد عمر في الخمر.

وقد روى السيوطي في الدر المنثور في ذيـل تفسير قـوله تعـالى: ﴿ووصينـا الإنسان بـوالديـه احسانـاً﴾ قال: بعجـه بن عبد الله الجهيني

قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينه فولدت له تماماً لستة أشهر فانطلق زوجها لعثمان فأمر برجمها فبلغ ذلك علياً (ع) فأتاه فقال: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك؟ قال الإمام (عليه السلام): أما سمعت الله يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وقال: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ فكم تجده بقي إلا ستة أشهر فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا عليٌّ بالمرأة، فوجدوها قد فرغ منها، وكان من قولها لأختها: يا أختي لا تحزني فوالله ما كشفت فرجي لأحد قط غيره.

قال: فشب الغلام فأعترف الرجل به وكان أشبه الناس به، هذا ما كان من علمه في أمور العقائد والشرائع، وأما ما كان من علومه الأخرى فهي كثيرة يصعب علينا تناولها في هذا المجال وفيما يلي بعضها:

١ ـ علمه بالنجوم:

روى سعيد بن جبير (رض): إن الإمام علي (ع) استقبل دهقان من المدائن فقال تناحست النجوم الطالعات، وتناحست السعود بالنحوس فإذا كان مثل هذا اليوم وجب على الحكيم الأختفاء ويومك هذا يوم صعب قد اقترن فيه كوكبان وأنكفأ منه الميزان وانقدح من برجك النيران وليس الحرب لك بمكان فقال الإمام (ع): أيها الدهقان المنبيء بالآثار المخوف من الأقدار ما كان البارحة صاحب الميزان؟ وفي أي برج كان صاحب السرطان وكم الطالع في الأسد والساعات في الحركات؟ وكم بين السراري والزراري؟ فتبسم (عليه السلام) وقال له: يا دهقان انت مسيّر الثابتات أم كيف تقضي على الجاريات؟ وأي ساعات الأسد في المطالع، وما الزهرة في التوابع والجوامع وما دون السراري المحركات، وكم قدر شعاع النيران وكم التحصيل بالغدوات؟ فقال الدهقان لا علم

لي بذلك، فقال الإمام (ع): هل نتج علمك أن أنتقل بيت ملك الصين، واحترقت دور الزنج، وخمد بيت فارس، وانهدمت منارة الهند، وغرقت سرى نديب، وانخفض حصن الأندلس؟ إلى أن قال (ع): البارحة سعد سبعون ألف عالم، وولد في العالم سبعون ألفاً والليلة يموت مثلهم، وهذا.. وأومى بيده الشريفة إلى رجل في جيشه اسمه سعد بن مسعدة الحارثي وكان جاسوساً للخوارج فظن انهُ يقول خذوه فأخذ بنفسه فمات.. منهم، فخر الدهقان ساجداً لله ونطق بالشهادتين.

٢ ـ علمه في الطاقة الكهربائية:

لقد كان الإمام علي (ع) أول من كشف الطاقة الكهربائية (يروي) أنه مرَّ يوماً على نهر الفرات. فرأى تدفق ماؤهُ فقال: لو شئت لأستخرجت من هذا ناراً.

وبعد قرون على كلامه، تم هذا الاكتشاف العلمي عبر تجارب مريرة فالإمام كشفهُ قبل اربعة عشر قرناً من الزمن، ولم يقف الناس على حقيقة هذا الاكتشاف إلاَّ في القرن العشرين.

٣ ـ علمه بالرياضيات:

(روى) أن رجلين جلسا يتغذيان مع أحدهما خمسة أرغفة[١] من الخبز ومع الآخر ثلاث فلما وضعا الغذاء بين أيديهم مرَّ بهما رجل فسلم فقالا: اجلس للغذاء فجلس وأكل معهما واستوفوا في أكلهم الأرغفة الثمانية فقام الرجل وطرح اليهما ثمانية دراهم وقال: خذا هذا عوض مما أكلت لكما ونلته من طعامكما، فتنازعا وقال صاحب الخمسة أرغفة إلي خمسة دراهم ولك ثلاث دراهم، فقال صاحب الثلاثة أرغفة لا أرضى إلا

(١) الاستيعاب ج ٣ ص ٤٦٣.

أن تكون الدراهم بيننا نصفين، وأرتفعا إلى أمير المؤمنين (رضي) فقصّا عليه قصتهما فقال لصاحب الأرغفة الثلاثة قد عرض عليك صاحبك ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك فارض بثلاثة، فقال: لا والله لا رضيت منه إلاَّ بمر الحق، فقال علي (رضي): ليس لك في مر الحق إلاَّ درهم واحد وله سبعة. فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين هو يعرض عليَّ ثلاثة فلم أرض وأشرت عليَّ بأخذها فلم أرضى وتقول لي الآن أنه لا يجب في مر الحق الاّ درهم واحد، فقال علي: عرضَ عليك صاحبك الثلاثة صلحاً. فقلتَ لم أرض إلاَّ بمر الحق، ولا يجب لك بمر الحق إلاَّ واحد، فقال الرجل: فعرفني بالوجه في الحق حتى أقبله، فقال علي (رض) أليس للثمانية أرغفة أربعة وعشرون ثلثاً أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ولا يعلم الأكثر منكم أكلاً ولا الأقل فتحملون في أكلكم على السواء قال: بلى.

قال: فأكلت أنت ثمانية، وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثاً أكل منها ثمانية ويبقى له سبعة بسبعة، فقال الرجل: رضيت الآن. وذكر الشيخ التستري في كتابه (قضاء أمير المؤمنين) قال: دخل يهودي على علي (ع) وقال: أخبرني عن عدد يكون له نصف، وثلث، وربع، وخمس، وسدس، وسبع، وثُمن وتسع، وعشر، ولم يكن فيه كسر فقال علي (ع) ان أخبرتك تسلم؟.

فقال: نعم.

فقال الإمام (ع): أضرب أيام أسبوعك في سنتك فكان كما قال فلما تحققت المسألة وصحتها، ولم يكن فيها كسر أسلم.

إن ضرب أيام الأسبوع السبعة في ثلثمائة وستين أيام السنة يصير الحاصل الفين وخمسمائة وعشرين وله الكسور التسعة، والنصف وهو

الف ومـائتان وستـون، والثلث وهو ثمنمـائة وأربعـون، والـربـع ستمـائـة وثـلاثون، والخمس خمسمـائة وأربـع، والسـدس أربعمـائـة وعشـرون، والسبع ثلثمائة وستون، والثمن خمسمائة وخمسـة عشر، والتسـع مائتـان وثمانون، والعشر مائتان واثنان وخمسون.

٤ ـ علمه بالنحو:

لقد كان الإمام علي (ع) أول من وضع علم النحو وأبان عن معدنه وأسدى للغة العربية أنصح الأيادي وأعظمها وقدم لها أوفر خدمـة وأحسن معروف.

روى الزجاج في أماليه عن أبي الأسـود الـدؤلـي قال: دخلت على علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً مفكراً فقلت: فيما تفكر يا أمير المؤمنين قـال: إني «سمعت ببلدكم هذا لحنـاً فأردت أن أضـع كتـابـاً في أصـول العـربية فقلت إن فعلت هـذا أحييتنا وبقيت لنـا هذه اللغـة ثم أتيتـه بعـد ثلاثٍ، فألقى لي صحيفة فيها بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله أسم، وفعـل وحرف، فـالأسم ما أنبـأ عن المسمى والفعل مـا أنبـأ عن حـركـة المسمى، والحـرف ما أنبأ عن معنى ليس بـاسم ولا فعـل ثم قـال لي: تتبعه وزد فيه ما وقع لك وأعلم يا أبـا الأسود إن الأشيـاء ثلاثـة: ظاهـر، ومضمر، وشيء ليس ظاهر ولا مضمر، وإنما تفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر، قال أبو الأسود: فجمعت أشيـاءً وعرضتهـا عليه، وكان من ذلك حروف النصب، فذكرت فيها إنَّ، ولعلَّ، وكأنَّ. ولم أذكر لكنَّ فقـال لي: لم تركتهـا؟ فقلت: لم أحسبها فيهـا فقال: بـل هي منها فزدها فيها.

واما ما جاء من كلامه في وصفه للقرآن المجيد... ذلـك الوصف الجميل العظيم الـذي لم يسبقهُ إليـه أحد فهـو خير دليـل وأوضح بـرهان

علي مدى معرفته بكتاب الله المجيد. يقول (ع): «ثمَّ انزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجهُ، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وبنياناً لا تهدم أركانه، وشفاءً لا تسقى اسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تخذل أعوانه. فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس معه داء، ونوراً ليس معه ظلمة وحبلاً وثيقاً عروتهُ، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن أئتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلحاً لمن حاجَّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسم، وجُنةً لمن استلأمَ، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى.

إذا جئنا إلى شجاعته التي ضربت بها الأمثال وتغنّى بها الشعراء نراه انه قد أنس ذكر من كان قبله ومحى اسم من يأتي بعده. فقد شهدت بشجاعته ميادين الحروب التي خاضها دفاعاً عن الإسلام، فلولا سيفه لما قام الدين ولا انهدت صولة الكافرين، ولهذا قال رسول الله (ص): «ما قام الإسلام إلاَّ بسيف علي بن أبي طالب ومال خديجة».

كان سيف علي (ع) يدخل الرعب والخوف إلى قلوب الطغاة والمتجبرين، كما كان يبعث الطمأنينة إلى قلوب المؤمنين.

يوم بدر بعث البسمة إلى شفاه المحرومين والمظلومين.

ويوم حنين حول الهزيمة إلى نصرٍ كبير.

ويوم الخندق قال رسول الله عن ضربته لعمرو بن ود العامري: «ضربة علي لعمرو تعدل عبادة الثقلين».

ويوم خيبر كان يدك حصون اليهود ويجندل أبطالهم.

لقد دوّى صوت علي (ع) في سماء ميادين الجهاد من أجل الحق والعدل والحرية وعمره الشريف لم يتجاوز العشرين عاماً، وبقى صوته مدوياً يقظمضاجع الطغاة حتى هوى مضرجاً بدمائه الزكية بسيف البغي والعدوان.. وهو في محرابه يناجي ربه، وهو القائل: «نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا ذارفت على الستين».

إن مواقف الإمام في سبيل تشييد هذا الدين لا تحصى ولكن نذكر منها ما يلي:

١ ـ بعد اتساع الدعوة الإسلامية في مكة اجتمعت القوى الرأسمالية لتدارك مصالحها، فاتخذت قراراً بتصفية الرسول (ص) جسدياً، وقد اختير لتنفيذ مخططهم الاجرامي أربعون رجلاً من كافة القبائل العربية حتى إذا ما قتل النبي (ص) يضيع دمه الزكي بين القبائل فيتعذر بعد ذلك على بني هاشم أخذ الثأر، فيقبلوا بالفدية.
وفي ليلة ظلماء هجم على بيت الرسول (ص) أربعون رجلاً وكانوا مدججين بالسلاحِ، وحينما دخلوا إلى غرفة منامه فوجئوا بسيف الإمام علي مشهوراً في وجوههم، فقد بات في فراش النبي، وخرج النبي (ص) من مكة قاصداً يثرب دار الهجرة وبلد الآمان، وقد كان هذا الموقف العظيم يمثل أروع صور البطولة والفداء، ولهذا نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسهُ ابْتِغَاء مرْضَاة الله وَالله رَؤوفٌ بِالعِبَادَ﴾. روى الثعلبي في تفسيره إن النبي لما أراد الهجرة

إلى المدينة خلّف علياً بمكة لقضاء ديونه وايداع الودائع التي كانت عنده وأمره ليلة خرج إلى الغار، وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام في فراشه وقال له: اتشح ببردي الحضرمي الأخضر ونم ففعل ذلك الإمام علي (ع) فأوحىٰ الله إلى جبرائيل وميكائيل اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكم أطول من الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة، فأوصى الله إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيتُ بينه وبين محمد فبات في فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل ينادي بخ بخ من مثلك يا علي؟ يباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة.

٢ ـ في معركة حنين أصيب الرسول في رباعيته وانهزم المسلمون إلى قمم الجبال، وبقي الإمام ومعه مجموعة قليلة من المؤمنين يواجهون أعداء الله، فقد كان الإمام في هذه المعركة يتصدى لمشركي قريش ببسالة منقطعة النظير، وقد بالغ في الدفاع عن صاحب الرسالة (ص)، ولما انكسر سيفه نادى جبرائيل في السماء: «لا فتى إلَّا علي ولا سيف إلَّا ذو الفقار».

ذكر الطبري: لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الالوية أبصر رسول الله (ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: أحمل عليهم فحمل ففرق جمعهم وقتل عمر بن عبد الله الجمحي، ثم أبصر رسول الله (ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: أحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل شيبة بن مالك بن عامر، فقال جبرائيل: يا رسول الله ان هذه المواساة، فقال رسول الله (ص): «إنه مني وأنا منه».

ولولا صمود أمير المؤمنين (ع) في هذه المعركة لقتل الرسول الأعظم (ص) وانطفأ نور الإسلام إلى الأبد.

٣ ـ لما اقتحم عمرو بن ود الخندق وكان بقيادته اثنا عشر الف مقاتل طلب المبارزة، فجبن المسلمون كلهم، وأخذ يكرر الدعوة لمبارزته مرات ومرات ولكنهم لم يجيبوه، كأن على رؤوسهم الطير، فجعل يوبخهم ويؤنبهم والنبي (ص) يقول من لعمرو وقد ضمنت له على الله الجنة إن قاتلاً وإن مقتولاً. فلم ينهض أحد لمبارزته إلاّ علي بن أبي طالب (ع) فقال يا رسول الله أنا له فقال يا علي هذا عمرو بن ود. فقال الإمام وأنا علي بن أبي طالب فاذن له الرسول (ص) وتوجه الإمام علي (ع) نحو عمر فقال الرسول (ص): برز الإيمان كله إلى الشرك كله. ولما ضرب علي عمرو وارداه قتيلاً وانتهت اسطورته قال الحبيب المصطفى (ص): ضربة علي لعمرو تعدل عبادة الثقلين.

وحينما كان عمرو يتحدى المسلمين كانت فرائصهم ترتعد خوفاً، وقد وصف القرآن المجيد حالهم بقوله: **﴿إِذَا جَاؤكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذَا زَاغَتْ الأَبْصَار وَبَلَغَتْ القُلُوب الحَنَاجر وتظنون بالله الظُنُونا هُنَاكَ أُبْتِلِيَ المُؤْمِنون وزَلْزَلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾**.

أما زهده، وعدله، وسياسته الادارية والمالية فسنبينها في خلال حكمه إن شاء الله.

«قبسات من عهد الإمام لمالك الأشتر»

كان العهد الذي كتبه الإمام علي (ع) لمالك الأشتر النخعي حينما ولاه مصر من أرقى دساتير العالم، فقد أكد فيه على إقامة العدل والحق وإطلاق الحريات للناس جميعاً كما نهى فيه عن جميع أشكال الظلم وبيّن بأن الله تبارك وتعالى سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد، وقد أوصى مالك بالإحسان والعمل الصالح والشح عما لا يحل له وستر العورة بقدر استطاعته، كما ألزمه بتفقد رعيته باستمرار.

فالإمام علي (ع) كان أول من نادى ببناء مدنية راقية تتفق مع رقي الإنسان الفكري ونضوجه العقلي.

وفيما يلي مقتطفات من هذا العهد:

في مسألة رقابة الرأي العام للأمة على الحاكم وأسلوبه في الحكم يقول الإمام (ع) لمالك: «ثم اعلم يا مالك إني وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك عدل وجور وأن الناس ينظرون في أمورك في مثل ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك فإن الشح بالنفس. الإنصاف منها فيما أحبّت أو كرهت».

وفيما يتعلق بالمحسوبية والمنسوبية يقول (ع) لمالك: «انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك وممّن لك فيه هوى من

رعيتك فإنك ألاَّ تفعل تظلم ومن يظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان الله حرياً عليه حتى ينزع ويتوب وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد».

وتطرق الإمام في عهده لمالك إلى طبيعة علاقة الحاكم بالرعية قائلاً: «واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل ويؤتي على أيديهم في العمل والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك...».

وفيما يتعلق في مسألة توجه الحاكم نحو العامة لا نحو الخاصة قال (ع) لمالك: «وليكن أحبَّ الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمّها في العدل وأجمعها لرضا الرعية فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف[1] وأقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة وإنّما عماد الدين وجماع المسلمين والعدّة للأعداء العامة من الأمة فليكن صفوك[2] لهم وميلك..».

وفيما يتعلق في مسألة اختيار الحاكم لمستشاريه يقول (ع) لمالك: «وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس فإن في الناس عيوباً الوالي أحق بسترها فلا تكشفن عمّا غاب عنك فاستر العورة

---

(١) الالحاف: الإلحاح.

(٢) صفوك: سماعك.

ما استطعت يستر الله ما تحب ستره من رعيتك ولا تـدخلّن في مشورتـك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعـدك الفقر ولا جبـاناً يضعفـك عن الأمور ولا حريصاً يزيّن لك الشـره بالجـور فإن البخـل والجبن والحرص غـرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله».

وفيمـا يتعلق بحاشيـة الحاكم يقـول الإمام (ع) لمـالـك: «والصق بأهل الـورع والصدق ثم رضهم[١] على أن لا يـطروك[٢] ولا يبجحوك[٣] بباطل تفعله فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتوني العزة[٤]».

وبالنسبة إلى مسألة عدم تعاونه مع وزراء وأعوان الظالمين قال (ع) لمالك: «إن شرّ وزرائك من كـان للأشـرار قبلك وزيراً ومن شـركهم في الآثـام، فلا يكونن لـك بطانـة[٥] فإنهم أعـوان الأثمة، واخـوان الظلمـة، وأنت واجـد منهم خير الخلف ممّن لـه مثل آرائهم ونفـاذهم وليس عليـه مثل آصارهم[٦] وأوزارهم ممّن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثمـاً على إثمه، أولئك أخفّ عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عـطفاً، وأقل لغيرك إلفاً..

وقد أكّد الإمام (ع) على مالك: بضرورة الإحسـان إلى المحسنين ومعـاقبة المسيئين قـائلاً: «ولا يكـوننّ المحسن والمسيء عنـدك بمنـزلـة سواء، فإن في ذلك تزهيداً[٧]، لأهل الإحسان، وتدريباً[٨] لأهل الإسـاءة والزم كلاً منهم ما ألزم نفسه».

(١) رضهم: أي عودهم.
(٢) يطروك: يمدحوك.
(٣) يبجحوك: يعدوك.
(٤) توني: تثقل.
(٥) بطانة الحاكم: خاصة أصحابه.
(٦) الآصار: الآثام.
(٧) تزهيداً: أي تثقيلاً في خفهم.
(٨) تدريباً: أي تعويداً.

كما أكدّ أمير المؤمنين (ع) على مالك بلزوم الاعتماد على أهل الخبرة قائلاً: «وأكثر مدارسة العلماء ومنافثة[1] الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك».

وأما بالنسبة إلى قضية تعيين الجند قال (ع) لمالك: «فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك وأنقاهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطيء عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء ويبنو[2] على الأقوياء، وممّن لا يثيره العنف ولا يفقد به الضعف.. ثم ألصق بذوي المروءات[3] والاحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم[4] وشعب من العرف[5]».

وأما بالنسبة إلى علاقة القائد بالجندي قال الإمام (ع) لمالك: «وليكن آثر[6] رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته وأفضل عليهم من جدّته[7] بما يسعهم ويسع من ورائهم من خلوف[8] أهليهم حتى يكون همهم همّاً واحداً في جهاد العدّو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وأن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودّة الرعية وأنه لا تظهر مودتهم إلاَّ بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم إلاَّ بحيطتهم على ولاة الأمور..

---

(١) المنافثة: أي المحادثة.

(٢) يبنو: أي يشتد ويعلو عليهم.

(٣) المروءات: النخوة.

(٤) جماع: أي مجموعة.

(٥) العرف: المعروف.

(٦) آثر: أفضل وأعلى منزلة.

(٧) الجدّه: الغني.

(٨) خلوف: من يتخلف من النساء والعجزة.

وأما بالنسبة إلى كيفية اختيار القضاة يقول (ع) لمالك: «ثم أختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممّن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه[1] الخصوم، ولا يتمادى في الزلة[2]، ولا يحصد من الفيء[3] إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوفقهم في الشبهات واخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرحهم عند اتّضاح الحكم ممّن لا يسديه[4] إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك هو قليل».

وأما في مسألة اختيار رجال الإدارة قال الإمام علي (ع) لمالك: «ثم أنظر في عمّا لك فاستعملهم اختياراً ولا تولّهم محاباة وأثرة فإنهم جماع من الشعب الجور والخيانة. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح اعراضاً، وأقل في المطامع أشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً».

وفي مسألة مراقبة الموظفين قال (ع) لمالك: «ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية».

وفيما يخص خيانة موظف الدولة بعد ثبوت خيانته يقول (ع) لمالك: «وتحفظ من الأعوان فإذا أحد منهم بسط يده إلى خيانة أجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه

---

(١) تمحكه: أي تجعله عسير الخلق.

(٢) الذل: الخطأ.

(٣) الفيء: الرجوع.

(٤) يسديه: الإعجاب بالنفس.

العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة، وقلّدته عار التهمة».

وقد أكدّ الإمام في عهده لمالك على ضرورة الانصراف إلى الإعمار والإصلاح، قبل التفكير في فرض الضرائب قائلاً: «وتفقد أمر الخرّاج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن ساواهم، ولا صلاح لمن ساواهم إلاّ بهم، لأن الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عماره أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً..

وقد أكّد (ع) على مالك بعدم حصر المسؤولية بشخص واحد وتقسيم العمل الحكومي قائلاً: «واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم، لا يقهره كبيرها، ولا يتشتت عليه كثيرها، ومهما كان في كتابك فتغابيت عنه الزمته».

كما أمره بأن يوصي عمّاله وموظفيه بالاهتمام بالتجار والصناع قائلاً له: «ثم استوصي بالتجار وذوي الصناعات وأوصي بهم خيراً. المقيم منهم والمضطرب بماله[١]، والمترفق ببدنه[٢] فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلاّبها من المباعد والمطارح في برّك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقة وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواش بلادك»[٣].

---

(١) المضطرب بماله: التاجر الذي يدور بماله من بلد إلى بلد للكسب.

(٢) المترفق ببدنه: أي العامل اليدوي

(٣) حواش البلاد: أي أطرافها.

وفي مسألة معاقبة التجار الذين يرغبون بالحصول على أرباح عالية فيعمدون إلى الاحتكار يقول (ع): «واعلم.. مع ذلك.. إنّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله (ص) منع منهُ.. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك إيّاه فنكّل به وعاقبه من غير إسراف».

وهكذا ألزم الإمام أمير المؤمنين مالكاً بضرورة الاهتمام بأوضاع الفقراء قائلاً له: «ثمَّ الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمني[1] فإنَّ في هذه الطبقة قانعاً ومعتّراً[2] واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم. واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلاة صوافي الإسلام[3] في كلّ بلدٍ، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكلّ قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همّك عنهم، ولا تصعر خدّك لهم».

كما ألزمه بضرورة فتح دائرة خاصة بالرعاية الاجتماعية يتولى إدارتها أناس من ثقاته قائلاً له: «وتفقدّ أمور من لا يصل إليك منهم، ممّن تقتحمه العيون، وتحقّره الرجال ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكلٌّ فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه».

---

(١) الزمانة: العاهة.

(٢) المعتد: الفقير الذي يتعرض للعطاء بلا سؤال.

(٣) صوافي الإسلام: الأراضي المفتوحة وغلاتها: ثمراتها.

وهكذا ألزمه بضرورة رعاية اليتامى لصغر سنِّهم، والعجزة لكِبر سنِّهم قائلاً له: «وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقة من السِّن[1] ممّن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبّروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم».

وفي مسألة تفرغ الحاكم لاستقبال أصحاب الحاجات والمتظلمين الذين لم يحصلوا على حقوقهم من أجهزة الدولة وموظفيها قال (ع) لمالك: «واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقصد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك غير متتعتع[2] فإني سمعت رسول الله (ص) يقول في غير موطن: «لن تُقدس أمة لا يؤخذ للضعيف حقه من القوي غير متتعتع»، ثم احتمل الخرق[3]..

وفي ختام عهده لمالك الأشتر النخعي قال أمير المؤمنين (ع): «وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على عطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا لله وإنا إليه راجعون والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً. والسلام».

---

(١) ذوي الرقه في السِّن: أي كبار السن.

(٢) التعتعة في الكلام: أي التردد فيه بسبب الحزن أو بسبب عاهة.

(٣) الخرق: أي العنف.

وقبل عرض سياسة الإمام الخلّاقة وأسلوبه في رعاية الناس أود هنا إعطاء القارىء العزيز صورة موجزة عن دوره بعد يوم السقيفة بعد اختلاس حقه في الخلافة.

حينما توفي النبي (ص)، خلف أمة ومجتمعاً ودولة.

فالدولة: هي القيادةا لتي كانت تتولى، تزعم التجربة.

أما المجتمع: هو المجموعة من الناس التي كانت تمارس حياتها على أساس الرسالة الإسلامية.

وأما الأمة: هي المجموعة من المسلمين الذين كانوا يؤمنون برسالته ويعتقدون بنوبته.

فالانحراف الذي حصل يوم السقيفة، كان أول ما كان في كيان الدولة، لأن القيادة كانت قد اتخذت طريقاً غير طريقها الطبيعية، وحينما تنهار الدولة، حينما تنهار زعامة التجربة ينهار تبعاً لذلك المجتمع الإسلامي، لأنه يتقوم بالعلاقات التي تنشأ على أساس الإسلام فإذا لم تبق زعامة التجربة لترعى هذه العلاقة وتحمي وتقنن قوانين لهذه العلاقات، فلا بدّ ستنهار هذه العلاقات، وتتبدل بعلاقات أخرى قائمة على أساس آخر غير الإسلام وهذا معناه زوال المجتمع الإسلامي.

وبعد زوال الدولة الشرعية الصحيحة، وزوال المجتمع الإسلامي الصحيح، تبقى الأمة، إلاَّ أن هذه الأمة من المحتوم عليها أن

تفتت وأن تنهار، وأن تنصهر ببوتقة الغزو الكافر، الذي أطاح بدولتها وبمجتمعها. لأن الأمة التي عاشت الإسلام مدة قصيرة من الزمن، لم تستطع أن تستوعب، من الإسلام ما يحصنها، ما يحدد أبعادها، ما يقويها.

وبمواجهة هذا الواقع برز دور الإمام أمير المؤمنين (ع)، على مرحلتين:

عمل في المرحلة الأولى على تسلم زعامة التجربة، لمحو آثار الانحراف عن كيان الدولة، وإرجاع المجتمع الإسلامي إلى وضعه الطبيعي.

أما في المرحلة الثانية عمل الإمام على تحصين الأمة ضد الانهيار، بعد سقوط التجربة وإعطائها مزيداً من المناعة والقدرة، لكي تقف على قدميها وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة، بقدم راسخة، وروحية عالية. وبذل الإمام جهوداً جبارة من أجل تسلم زعامة التجربة لكنه لم يستطع وذلك بسبب انخفاض الوعي العقائدي عند الأمة، فالمسلمون في ذلك الوقت لم يدركوا أن يوم السقيفة كان هو اليوم الذي سوف ينفتح منه كل ما انفتح من بلاء على الخط الطويل لرسالة الإسلام.. لم يدركوا هذا، وإنما اعتقدوا بالوجوه التي تولت زعامة التجربة بأنها قادرة على تطبيق الإسلام على واقع حياتهم.

في سبيل تزعم التجربة، وفي سبيل محاربة الانحراف القائم ومواجهته بالقول الحق وبالعمل الحق، وبشرعية حقه في هذا المجال، كان الإمام يواجه مشكلة كبيرة جداً، وقد استطاع أن ينتصر على هذه المشكلة انتصاراً كبيراً.

الوجه الظاهري لهذا العمل، والوجه الواقعي لهذاالعمل، هما المشكلة التي كان يواجهها.

قد يتبادر إلى ذهن الإنسان الاعتيادي لأول مرة أن العمل في سبيل معارضة زعامة العصر، والعمل في سبيل كسب هذه الزعامة، أنه عمل في إطار فكري، أنه عمل يعبر عن شعور هذا العامل بوجوده، وفي مصالحه، وفي مكاسبه، وبأبعاد شخصيته، هذا هو التفسير التلقائي الذي يتبادر إلى الأذهان، من عمل يتمثل فيه الإصرار على معارضيه في زعامة العصر على كسب هذه الزعامة، وقد حاول البعض أن يستغل هذه البداهة التقليدية في مثل هذا الموقف من الإمام أمير المؤمنين (ع).

إلّا أن الوجه الواقعي لهذا العمل من قبل الإمام (ع) لم يكن هذا، الوجه الواقعي هو أن الإمام (ع) كان يمثل الرسالة وكان هو الأمين الأول من قبل رسول الله (ص) على التجربة على استقامتها وصلابتها، وعدم تمييعها على الخط الطويل، الذي سوف يعيشه الإسلام والمسلمون بعد النبي (ص).

فالعمل كان بروح الرسالة ولم يكن بروحه هو، كان عملاً بروح تلك الأهداف الكبيرة، ولم يكن بروح المصلحة الشخصية، لم يكن يريد أن يبني زعامة لنفسه، وإنما كان يريد أن يبني زعامة الإسلام وقيادة الإسلام في المجتمع الإسلامي، وبالتالي في مجموع البشرية على وجه الأرض.

فالخلافة كانت عنده لا تساوي عفطة عنز.. أو شسع نعل، كان شعر أصحابه على أنهم أصحاب الأهداف الكبيرة لا أصحاب عامته وشخصه.

انتصر الإمام على نفسه، وانتصر في إعطاء عمله اطاره الرسالي طابعه العقائدي انتصاراً كبيراً.

الإمام علي ربّى أصحابه على أنهم أصحاب الأهداف لا أصحاب

نفسه، كان يدعو إلى أن الإنسان يجب أن يكون صاحب الحق، قبل أن يكون صاحب شخص بعينه.

فالإمام هو الذي قال: «اعرف الحق تعرف أهله».

كان يربي عماراً، وأبا ذر، والمقداد على أنكم اعرفوا الحق... ثم احكموا على علي في إطار الحق.

كان يعمل في سبيل إرجاع حقهِ المغتصب في الحكم، لكنه في نفس الوقت كان يرفض رجوع هذا الحق بشروط تنال من الرسالة.

ألم تُعرض عليه الخلافة بعد مقتل عمر بشرط أن يسير سيرة الشيخين. فرفضها برفض هذا الشرط؟.

هذا هو الخط الأول وهو خط محاولة تسلم زعامة التجربة.

وأما على الخط الثاني:

وهو خط تحصين الأمة لقد كانت الأمة تواجه خطراً، وحاصل هذا الخطر هو أن العامل الكمي والعامل الكيفي، سوف يجعلان هذه الأمة لا تعيش الإسلام، إلاَّ زمناً قصيراً.

بحكم العامل الكمي الذي سوف يسرع، في إفناء التجربة وسوف لن تعيش إلاَّ مشوهة بحكم العامل الكيفي، الذي يتحكم في هذه التجربة، ولذا بدأ الإمام بتحصين الأمة، وبالتغلب على العاملين: العامل الكمي والعامل الكيفي.

أما التغلب على العامل الكمي فكان في محاولة تحطيم التجربة المنحرفة وتحجميها وإفساح المجال للتجربة الإسلامية لتثبيت جدارتها وذلك بأسلوبين:

الأسلوب الأول: هـو التدخـل الإيجـابي المـوجـه في حيـاة هـذه التجربة بلحاظ قادتها.

القادة الذين كانوا يتولون هذه التجربة، كانوا يواجهون قضايـا كثيرة لا يقوون على مواجهتها، ولو حاولوا لوقعوا في مطبات عـظيمة، وأوقعـوا الأمة في أشد التناقضات، ولأصبحت التجربة أقرب إلى الزوال، هنا كان يتـدخل الإمـام (ع) وهذا خط عـام سـار عليـه الأئمـة (ع) كلهم، فكـان الإمام (ع) يتدخل تدخلاً إيجابياً، موجهـاً في سبيل أن ينقـذ التجربـة من المزيد من الضياع ومن المزيـد من الانحراف ومن المـزيد من السيـر في الضلال.

تدخل الإمام الإيجابي الموجه كان في سبيل أن يقـاوم المزيـد من الانحراف، والمزيد من الضياع، كي يطيل عمر التجربة الإسلامية ويقاوم عامل الكم الذي ذكرناه.

الأسلوب الثاني: لمقاومة العامل الكمي كان هو المعارضـة. يعني كـان تهديـد الحكـام ومنعهم من المـزيـد من الانحـراف، لا عن سبيـل التوجيه، وإنما عن سبيل المعارضة والتهديد.

في الأول كنـا نفـرض أن الحـاكم فـارغ دينيـاً، وكـان يحتـاج إلى تـوجيه، والإمـام (ع) كان يـأتي ويـوجـه، أمـا الأسلوب الثـاني، فيكـون الحاكم فيه منحرفاً ولا يقبل التوجيـه، إذن فيحتاج إلى معـارضة، يحتـاج إلى حملة ضـد الحاكم هـذا، لأجل إيقـافه عنـد حده، ولأجـل منعه عن المزيد من الانحراف.

وكانت هذه السياسة العامة للأئمة (ع).

ألسنا نعلم بأن عمر صعد على المنبـر وقال: مـاذا كنتم تعملون لو إنا صرفناكم عما تعلمون إلى ما تنكرون.

كان يريد أن يقدر الموقف.

وماذا سيكون لو إنا صرفناكم مما تعلمون إلى ما تنكرون.

لو انحرفنا شيئاً قليلاً عن خط الرسالة ماذا سيكون الموقف. لم يقم له إلاَّ علي (ع) قال له: لو فعلت ذلك لعدّلناك بسيوفنا.

كان هذا هو الشعار العام للإمام (ع) بالرغم من أنه لم ينزل في عملية تعديل عمر بالسيف خلال حكم عمر، لظروفٍ موضوعية. إلاَّ أنه قاد المعارضة لعثمان، واستقطب آمال المسلمين ومشاعرهم واتجاهاتهم، نحو حكم صحيح، ولهذا كان هو المرشح الأساسي بعد فشل عثمان واجتمع عليه المسلمون.

الإمام علي عمل في هذه المرحلة من أجل تحديد الوجه الحقيقي للإسلام، في سبيل الحفاظ على الإسلام، وقد أظهر هذاا لوجه الحقيقي للإسلام بعد وصوله إلى سدة الحكم، لم يكن يستهدف من تولي الحكم تحصين التجربة أو الدولة، بقدر ما كان يستهدف تقديم المثل الأعلى للإسلام، لأنه كان يعرف التناقضات، في الأمة الإسلامية، بلغت إلى درجة لا يمكن معها أن ينجح عمل إصلاحي إزاء هذا الانحراف مع علمه أن المستقبل لمعاوية، وأن معاوية هو الذي يمثل القوى الكبيرة الضخمة في الأمة الإسلامية.

كان يعرف أن الصور الضخمة الكبيرة التي خلقتها سياسة عمر وسياسة عثمان والتي خلقها الانحراف هذه القوى، كلها إلى جانب معاوية، وهو ليس معه ما يعادل هذه القوى، لكن مع هذا قبل الحكم، ومع هذا بدأ تصفية وتعرية الحكم والانحراف الذي كان قبله، ومع هذا مارس الحكم وضحى في سبيل هذا الحكم بعشرات الآلاف من المسلمين، في سبيل أن يقدم الأطروحة الصحيحة الصريحة للإسلام وللحياة.

بعد مقتل عثمان أجمعت الجماهير على ترشيح خليفة يكون قادراً على سحق سياسة التفضيل التي سنّها عمر، وتطهير جهاز الدولة من المستغلين، فوقع اختيارها على الإمام علي، وجاء هذا الاختيار نتيجةً لإدراكها الكامل بعدالته ومقدرته على القيادة، فزحفت نحو داره وهي تهتف بحياته وتناديه: «لا إمام لنا غيرك». لكن الإمام قابلها بالرفض وعدم الرضى لعلمه بالأحداث الرهيبة التي سيواجهها إذا ما قبل الخلافة، فأصحاب الامتيازات الذين خلقتهم الحكومات السابقة سيشمرون عن سواعدهم لقتاله، وهو لا يريد أن يسبب كارثة للأمة، لهذا كان يقول: «لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به..».

ولم يكن رفض الإمام خوفاً من شيء وإنما تجنباً لمشاكل هو يعلم بها ستحدث إذا ما تولى أمر الأمة، وقبض على بيت المال، فالأهواء والعواطف والجاه والقربى لا محل لها في نفسه الكريمة وإنما الناس سواسية عنده لا فرق بين أبيض وأسود إلّا بالتقوى.. إنه ميزان الحق والعدل.

ولم تقتنع الجماهير بسبب رفضه.. لأنها كما أسلفنا أدركت بأنه الشخص الوحيد القادر على تغيير واقعها المأساوي، لذا كانت تردد: «ما نختار غيرك».

ولما رأى قادة الثورة إصرار الإمام على رفض الخلافة أمروا بإحضار بعض الوجوه البارزة وهدّدوهم بالقتل إذا لم يعجلوا بانتخاب خليفة للمسلمين قائلين لهم: أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تُبع، وقد أجلناكم يومكم، فوالله لأن لم تفرغوا لنقتلن علياً وطلحة والزبير وتذهب من أضحية ذلك أمة من الناس»[1]. فارتجف القوم خوفاً ورعباً، وبادروا

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣/ ٨٠.

إلى الإمام يستغيثوه ويهتفون: «البيعة البيعة» أما ترى ما نزل بالإسلام وما أبتلينا به من أبناء القرى؟.

وأيضاً أصر الإمام على رفضه قائلاً لهم: «دعوني والتمسوا غيري».

ولم يخف الإمام عليهم سبب رفضه بل أوضح لهم صور المستقبل المحزن الذي أخبره به رسول الله (ص) وبين له الأحداث المؤلمة التي سيواجهها إن قبل خلافتهم قائلاً: «أيها الناس إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت له العقول»[1]. كان الإمام (ع) يؤكد للجماهير المندفعة نحوه، والتي تطالبه بأن يتولى أمرها بأنها غير قادرة على الصمود معه.. لأنه ميزان الحق والعدل. ولما رأى الإمام (ع) إصرارا لناس وإلحاحهم قال: «إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم. ألاَّ وأني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه...».

لقد أشعرهم بأنه إن تولى أمرهم «سيأخذهم نحو الحق والعدل، فلا محاباة، ولا مصانعة، ومع ذلك دعاهم إلى التماس غيره، لكنهم أُصروا إلاَّ أن يبايعوه خليفةً لهم فهتفوا: «ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك..».

وتزاحمت عليه الجماهير وأنثالوا عليه من كل صوب وهم يطالبوه بقبول خلافتهم، وقد وصف (ع) شدة إصرارهم وازدحامهم عليه قائلاً: «فما راعني إلاَّ والناس كعرف الضبع[2] ينثالون من كل جانب حتى

---

(١) أنساب الأشراف ٥/٧.

(٢) عرف الضبع: الشعر الكثيف الذي يكون على عرف الضبع يضرب به المثل لشدة الزحام.

وطيء الحسنان وشق عطفاي[1]، مجتمعين حولي كربيضة الغنم».

ولم يعطهم الإمام الموافقة بل أجلهم إلى صباح اليوم الثاني لينظر في الأمر، فافترقوا على ذلك، وفي صباح اليوم الثاني لم يجد الإمام بدّاً من قبول الخلافة خوفاً أن ينزو إليها علج من بني أمية كما حدّث (ع) بذلك: «والله ما تقدمت عليها إلاّ خوفاً من أن ينزو على الأمة تيسٌ من بني أمية فيلعب بكتاب الله عزَّ وجلَّ»[2].

وأمام الجماهير المحتشدة قال الإمام (ع): «أيها الناس.. إن هذا الأمر أمركم ليس لأحدٍ فيه حق إلاَّ مَن أمّرتم، وقد افترقنا بالأمس وكنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلاَّ أن أكون عليكم إلاَّ وأنّه ليس لي أن آخذ درهماً دونكم فإن شئتم قعدت وإلاَّ أأخذ على أحد».

لقد أوضح الإمام (ع) طبيعة سياسته التي تمنعه من أخذ درهم من الأموال العامة، وهذه إشارة إلى أصحاب الامتيازات بأنه ليس كالحكام السابقين الذين ساعدوهم على نهب أموال الناس، وإنما سيقيم نظاماً عادلاً.. والمال سيعود حسب إرادة السماء.. للأمة لا للحكام!.

وبعد أن أوضح الإمام طبيعة سياسته تعالت أصوات الجماهير معلنةً إصرارها الكامل على انتخابه قائلة بلسانٍ واحد: «نحن على ما فارقناك عليه بالأمس..».

ثم اندفعت نحوه كأنها الأمواج المتلاطمة، وتقدم طلحة فبايع الإمام بيده، فتطير منه وطفق يقول: «ما أخلقه أن ينكث»[3]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن طلحة لما نكث بيعة الإمام علي (ع) وراح يؤلب

---

(١) شق عطفاي: أراد به خدش جانبه من كثرة زحام الناس عليه.
(٢) أنساب الأشراف ١ جـ ف ١ ص ١٥٧.
(٣) العقد الفريد ٣/٩٣.

الناس على حربهِ. فقد حذا بذلك حذو الشيخين أبو بكرٍ وعمر، حيث بايعا الإمام في غدير خمٍ خليفةً للمسلمين بعد رسول الله (ص). ثم عادا ونكثاها يوم السقيفة. وبايعت الجماهير الإمام علي (ع). . وهي تبايع الله ورسوله، وقد كانت هذه البيعة الوحيدة في تاريخ الإسلام من حيث الشمول والاتساع فقد كان إجماعاً جماهيرياً عليها.

وبعد أن بويع الإمام عمت الأفراح والمسرات جميع الناس، وقد وصف الإمام ابتهاجهم قائلاً: «وبلغ سرور الناس ببيعتهم إن ابتهج بها الصغير وهدج[1] الكبير، وتحامل عليها العليل وحسرت عليها الكعاب». وهكذا ألقت الخلافة بمقاليدها على الإمام أميرا لمؤمنين (ع) طائعة، وأصبح حاكماً عاماً على البلاد الإسلامية.

ولما وصل الإمام إلى الحكم ترى: هل سكن في قصر فخم؟ وهل لبس الحرير؟ وهل قدمت له الألوان من الأطعمة؟ وهل آثر قومه على باقي الناس؟ وهل فضل قومية على أخرى؟ وهل أقام حواجزاً بينه وبين رعيته؟ وهل وهل إلخ. . . ؟.

كلّا لم يكن الإمام علي (ع) ذا كفٍ يأخذها المال، وذا نفسٍ تستهويها الشهوات، وتأكلها هواجس الطامعين. . إنه معدن نقي واحدٌ في كل الأحوال. . عادل لا تأخذه في الله لومة لائم، فلا تغري السلطة والحكم، من كان لا يريد لنفسه التفرد، ولا يريد لها أن تعيش غضارة نعيم، والمسلمون يعيشون شظف العيش وخشونة الملبس.

لقد دخل (ع) الكوفة عاصمة حكمة مرتدياً مدرعة فقال لابن عباس: «إني دخلت الكوفة بمدرعتي هذه فإذا خرجت بغيرها فأنا خائن». وقال: «رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها. ولقد قال لي

---

(١) هدج: أي الشيخ الكبير الذي يمشي بارتعاش.

قائل: إلاَّ تنبذها عنك؟ فقلت: أغرب عني فعند الصباح يحمد السرى. . ».

وكان طعامه (ع) لا يتجاوز الخبز، والملح، واللبن، وأما بيته كان مسقفاً من جريد النخيل. . وهو بيت الحاكم العام للبلاد الإسلامية. ولقد خاطب الناس يوماً: «ألا وإن لكل مأمومٍ إمام يقتدى به ويستضيء بنور علمه. . ألاَّ وأن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه. . ألاَّ وأنكم لا تقدرون على ذلك ولكنِ اعينوني بورعٍ واجتهاد وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا أدخرت من أرضها شبراً. . ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويعودني جشعي إلى تخير الأطعمة.

ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع. . أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى. .

كانت هذه الكلمات المضيئة دعوة إلى الحد من الإسراف في الطيبات، كما كانت دعوة للحكام بأن يتقشفوا، وأن لا يفكروا إلاَّ برعيتهم. فالإمام كانت عنده الصلاحيات الواسعة التي بها يستطيع أن يلبس أفخر الثياب وأجملها، ويتناول أصناف الأطعمة، ويسكن في أفخم القصور، ويضع بين يديه الخدم، لكنه أبى إلاَّ أن يكتفي من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه.

لقد كان (ع) في منتهىٰ الزهد، وقد أوضح من خلال مسيرة حياته المشرقة أعظم الأسس التي عليها تشاد أعظم الأفكار وأعلاها في دنيا الزهد والتقشف.

فلم يفكر يوماً قط في ذاته أو خاصته، وإنما كان يشمل تفكيره الناس جميعاً.

وكان دائماً يردد: «أأقنع من نفسي بأن يقال هـذا أمير المؤمنين ولا أشـاركهم في مكاره الـدهر أو أكـون أسوة لهم في جشـوبة العيش، فمـا خُلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همّهـا علفها أو المـرسلة شغلها تقممها تكترشُ من أعلافها وتلهو عمـا يراد بهـا أو أترك سُـدى أو أهمل عابثـاً، أو أجرّ حبـل الضلالـة، أو أعتسف طريق المتـاهة». ولقـد قـال: «أتمتلي السائمـة من رعيهـا فتبـرك، وتشبـع الـربيضـة من عشبهـا فتـربض، ويأكـل علي زاده فيهجع قـرّت إذاً عينه إذا اقتـدىٰ بعـد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعيّة». فالدنيا بما فيها من طيبات لم تحصـل على مقعـدٍ قط في نفس علي بن أبي طـالب وإنـمـا راح يخاطبها: غرّي غيري أبيَّ تعـرضتِ أم لي تشوقت هيهـات هيهات، قـد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي إليك.. آهٍ آه من قلة الزاد وبعـد السفر ووحشـة الطريق».

فالإمام (ع) بعد تسلمه مقاليد الأمور بادر إلى تـطهير جهـاز الدولـة من العناصر الفاسدة التي كـانت تتلاعب بمقـدرات الأمة، فـأصدر قـراراً بعزل جميع الولاة والعمّال الذين اختلسوا حقـوق الجماهيـر، ومن الذين تمَّ عزلهم معاوية بن أبي سفيان، وكان هذا الإجراء لأجل الإسراع بعملية الإصلاح الاجتماعي الذي اغتالته الحكومات السابقة.

وقـد كان لهـذا القـرار الحـازم أثـراً بـالغـاً على نفـوس المستغلين والمحتكرين.. لأنهم خسروا شركائهم أصحاب القرار في الدولة.

لقد كان بوسع الإمام أن يعمل مؤقتاً مع أجهزة عثمان، وقد يحصل من خلال ذلك على نقطة قوة لحكمه، لكنه رفض ذلـك وراح يقتص من هذه الأجهزة الفاسدة حسبما تقتضيه النصوص.. لأنه صاحب الأطروحـة الجديدة.. صـاحب الخط الإسلامي الآخـر المعارض على طـول الزمن للسقيفة ولنهج السقيفة.

وإذا كان معاوية قد أعلن تمرده على الإمام (ع) ليس بسبب قرار العزل، وإنما كان معاوية ينتظر الفرصة الذهبية التي يتيحها مقتل، عثمان، هذه الفرصة التي كانت تعطيه سلاحاً غير منتظر يمكن أن يمسكه ويدخل الميدان به، لذا تأخر عن نصرة عثمان، فعثمان كان يستنصره ويستصرخه ويؤكد له أنه يعيش لحظات الخطر، ولكنه كان يتلكأ في إنقاذه. فهو كان بوسعه على أقل تقدير أن يؤخر هذا المصير المحتوم بعثمان إلى مدة أطول لو أنه وقف موقفاً إيجابياً حقيقياً في نصرة عثمان لكنه امتنع عن نصرته لأنه كان يخطط لكي يبقىٰ هذا التيار كاسحاً، ولكي يخرج عثمان على يد الجماهيرميتاً، ثم بعد هذا يأتي ويمسك بزمام هذا السلاح، ولكي يقول أنا ابن عم الخليفة المقتول، فهذه الفرصة الذهبية لم يكن من المظنون أن معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، ولاية الشام كانت مرحلة، أما منذ قتل عثمان بدأ معاوية يتطلع إلى نهب كل الوجود الإسلامي، فإن معاوية لم يتمرد على الإمام علي (ع) لأن عزله عن الولاية، وإنما كان هذا التمرد جزءاً من المؤامرة الرهيبة التي استهدفت الإسلام يوم السقيفة. فعمر بن الخطاب حينما جاء إلى السلطة عين معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام وقد منحه صلاحيات استثنائية جعلته أن ينشىء ملكية مستقلة في الشام لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الإسلامية في باقي الأقاليم وهذا مما رسخ نوعاً من الانفصالية في الشام عن باقي أجزاء جسم الدولة الإسلامية.

وبعد وصول عثمان إلى سدة الحكم أصبح معاوية في الشام هو الآمر والناهي مما جعل الشام تعيش حالة انفصالية في الواقع، وإن لم تكن انفصالية بحسب العرف الدستوري للدولة الإسلامية وقتئذ.

وفي خصوص عزل معاوية يقول فيلسوف عصرة آية الله الشهيد

السعيد السيد محمد باقر الصدر(قدس سره): فإن الإمام حينما عزل معاوية عزله على أساس أنه يؤمن بعدم صلاحيته، وبأنه لا تتوفر فيه الشروط اللازمة في الحاكم الإسلامي، وهو لا يتحمل مسؤولية وجوده كحاكم، في الفترة السابقة التي عاشها معاوية حاكماً من قبل عثمان، أو من قبل عمر بن الخطاب.

ورغم الأجواء والمناخات الغير طبيعية التي خلقتها سياسة عمر وخلقتها سياسة عثمان في الأمة الإسلامية راح الإمام أمير المؤمنين (ع) يقيم حكم الله تبارك وتعالى، فطرد جميع عناصر العهد المباد من جهاز الدولة، وأصدر قراراً بإرجاع جميع الأموال المختلسة إلى الخزينة المركزية، فوضعت حكومته يدها على كل شيء أخذه عثمان له ولأقربائه، حتى درعه وسيفه، وفي خصوص إرجاع ما اقتطعه عثمان قال الإمام: «إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فإن الحق لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وخرق في البلدان لرددته إلى حاله فإن العدل سعة ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق».

لقد أدخلت سياسة الإمام العادلة الفرحة والسرور إلى قلوب المحرومين والمظلومين، كما أدخلت الهلع والخوف إلى قلوب جميع المستغلين والمحتكرين والذين منحتهم السلطات السابقة أموالاً بغير حق، ولهذا كتب عمر بن العاص لمعاوية رسالة جاء فيها: «ما كنت صانعاً فاصنع إذا قشرك ابن أبي طالب من كل مالٍ تملكه كما تقشر عن العصا لحاها».

ولما علمت قريش بعزم الإمام على إرجاع جميع الأموال المختلسة إلى الخزينة المركزية قلبت ظهرا لمجن، وراحت تصب بجام حقدها عليه، وقد وصف ابن أبي الحديد قلوبهم قائلاً: «كأنها حالة لو أفضت

الخلافة إليه بوفاة ابن عمه من إظهار ما في النفوس وهيجان ما في القلوب حتىٰ الأحلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم فعلوا ما لو كانت الأسلاف أحياءً لقصرت عن فعله» وقد ذكر الإمام حاله مع هذه العشيرة الخائنة قائلاً: «لقد أخافتني قريش صغيراً، وأنصبتني كبيراً حتىٰ قبض الله رسوله فكانت الطامة الكبرىٰ والله المستعان على ما تصفون»(١).

وفي حديثٍ له مع أخيه عقيل يقول الإمام (ع): «فدع عنك قريشاً في الظلال، وتجوالهم في الشقاق وجماحهم في التيه فإنهم قد أجمعوا على حرب رسول الله من قبلي فجزت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي وسلبوني سلطاني ابن أمي»(٢).

ثم قال: «مالي ولقريش لقد قتلتهم كافرين ولا قتلهم مفتونين، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرتهِ، فقل لقريش فالتصنع ضجيجها».

ولم يعبأ الإمام بمؤامرة قوى الشر وأدواتها القرشيين وإنما راح يشيد أركان دولته على الحق. والعدل ومكارم الأخلاق، فتبنت حكومته كافة مصالح الناس على اختلاف قومياتهم وأديانهم، وقد كان (ع) يشرف بنفسه على كل بادرة في رقاع دولته، فرأى أن يشارك البؤساء والضعفاء جشوبة العيش، وخشونة اللباس، ويبيت طاوياً إذ لعل بالحجاز أو اليمامة من لا عهد له بالقوت ولا طمع له بالشبع حتى أنه ضيق على نفسه الشريفة، وحرم عليها أقل متعة في الحياة، وأجهدها في التفكير في سبيل إنعاش الناس.

---

(١) شرح النهج ١٦/٣٦.
(٢) شرح النهج ١٦/٣٦.

لقد حذا الإمام أمير المؤمنين (ع) في سياسته المالية حذو الرسول الأعظم (ص) الذي عنى في تطوير الاقتصاد وإنعاش الحياة العامة، فقد كان (ع) باستمرار يلزم ولاته بالإنفاق على تطوير الاقتصاد العام كي لا يبقى أي شبح للفقر والحرمان في البلاد.

وكان مبدأ المساواة في التوزيع من أبرز مظاهر سياسته الخلّاقة، فلا فضل للمهاجرين على الأنصار، ولا لأسرة النبي (ص) وأزواجه على غيرهم، ولا للعربي على غيره، وفيما ذكر المؤرخون: إن عطاء الإمام (ع) كان بقدر عطاء خادمه قنبر ستة دنانير، وفي بعض الروايات ثلاث دنانير.

وقد ذكر المؤرخون: إن سيدة قرشية من الحجاز وفدت على الإمام (ع) تطلب منه الزيادة في عطائها، وقد التقت عجوز فارسية كانت تقيم في الكوفة فسألتها عن عطائها، فإذا به يساوي ما خصص لها، فأمسكت بها وجاءت بها إليه، وقد رفعت عقيرتها قائلةً: هل من العدل أن تساوي بيني وبين هذه الأمة الفارسية؟!.

فرمقها الإمام بطرفه وتناول قبضة من التراب وجعل ينظر إليه ويقلبه بيده الشريفة وهو يقول: «لم يكن بعض هذا التراب أفضل من بعض وتلىٰ قوله تعالى: ﴿ **إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾.

وقد ذكر المؤرخون: إن أخاه عقيل وفد عليه طالباً منه أن يمنحه الصلة ويرفه عليه حياته المعاشية فأخبره الإمام أن ما في بيت المال للمسلمين، وليس له أن يأخذ منه قليلاً ولا كثيراً، وإذا منحه شيء فإنه يكون مختلساً فلم يفقه عقيل ذلك وأخذ يلح عليه ويجهد في مطالبته فأحمى له الإمام (ع) حديده وأدناها منه وكاد أن يحترق من مسيمها،

وضـح ضجيج ذي دنف، فلمـا أفاق أجمـع رأيه على الالتحـاق بمعاويـة لينعم بصلاته وهباته التي يختلسها من أموال المسلمين.

هذه العدالـة في التوزيـع قد أثـارت غضب الرأسمـاليين، فأعلنـوا سخطهم على الإمام، وقد خفت إليه جموع من أصحابه تطالبـه بالعـدول عن سياسته فأجابهم: «أتـأمروني أن أطلب النصـر بالجـور فيمن وُليت عليه، والله ما أطور به ما سمر سمير. وما أمَّ نجم في السمـاء نجماً، لـو كان المال لي لسويت بينهم فكيف، وإنما المال مال الله! ألاَّ وأن إعـطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبـه في الدنيـا، ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله...»[1].

لقـد كان الإمـام (ع) يهدف من وراء سيـاستـه المـاليـة إلى إيجـاد مجتمع لا تطغىٰ فيه الرأسمالية، ولا تحدث فيه الأزمات الاقتصادية، ولا يواجه المجتمع أي حرمان أو ضيق في حياته المعاشية.

هذه السياسة المشرقة المستمدة من واقع الإسلام أدت إلى إجمـاع قوى البغي والعدوان أن تعمل جاهدة على إشاعـة الفوضى والاضـطراب في البـلاد مستهدفـة بذلـك الإطـاحـة بحكـومـة الإمـام.. ويـرى بعض المؤرخين إن من أهم الأسبـاب التي أدت إلى تخاذل العـرب عن الإمـام اتبـاعه لمبـدأ المساواة حيث كـان لا يفضـل شـريفـاً على مشـروف ـ في العطاء ـ ولا عربيـاً على أعجمي[2]، لقد وُرمت آنـاف أولئك الـطغاة من سياسة الإمام التي هدمت الحـواجز، وألغت الـطبقية وسـاوت بين جميع أبناء المسلمين لا في العطاء فقط وإنما في جميع الحقوق والواجبات.

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ١٠/٣٥.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١/١٨٠.

وكـان من مـظاهــر سيـاستــه الخـلاقــة، المسـاواة في الحقــوق والـواجبات، حيث كـان (ع). يؤكد على عمـاله وولاتـه بضـرورة تـطبيق المسـاواة بين الناس، فجـاء في بعض رسائلهِ لـولاته: «واخفض للرعيـة جناحك، وابسط لهم وجهك، وألـن لهم جانبك وآسي بينهم في اللحظة والنظرة، والإشارة، والتحية حتى لا يطمع العظماء في حيفك، ولا ييأس الضعفاء من عدلك. . . »[1].

وكان من مظاهر سياستـه أيضاً إطـلاق الحريـات، فقد منـح للناس جميعاً حرية الفكر، وحرية الرأي، وحرية التجارة، وغيرها من الحـريات فلم يفـرض قيوداً على أحـد حتى الأشخاص الـذين تخلفـوا عن بيعتـه، كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وحسان بن ثابت وغيرهم، كما منـح حريـة نقد الحكم، وقـد أصدر تعليمـاته لحكـومته بعـدم التعـرض للنـاقدين، فـالحريـة عنـد الإمـام (ع) ليس ملكـاً لأحـد وإنمـا هي ملك الجميـع فيجب أن تتـوفـر للجميـع شـريـطة أن لا تستغـل في الاعتـداء والأضـرار بالنـاس، وفيمـا ذكـر المؤرخـون: إن الإمـام لم يقـطع عـطاء الخـوارج إلاَّ حينما أذاعـوا الـذعـر والخـوف في نفـوس النـاس، وأخلوا بالأمن.

ومن مظاهر سياسته الخلاقة العمل على توحيـد صفوف الأمـة ونشر الإلفة والمحبة بين أبنائها، فقـد اهتم (ع) بهذا الجـانب اهتمامـاً بالغـاً، حتىٰ أنـه اعتبر الإلفـة الإسلاميـة من نعم الله تبارك وتعـالى الكبرى على الأمة فيما عقـد بينهم من حبل هـذه الإلفة التي ينتقلون في ظلهـا ويأوون إلى كنفها بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة. . لأنها أرجح من كل ثمن وأجل من كل خطر، فكان (ع) يناهض كل من يدعو إلى التفرقة والبغضاء، وقد قـاوم العصبية التي كـانت السبب في التخلف والانحطاط:

---

(1) نهج البلاغة محمد عبده ٣/ ١٠.

الخلقي الذي أصاب الأمة بعد وفاة الرسول (ص) مقاومة بلا هوادة، ودعىٰ إلى التعصب لمكارم الأخلاق قائلاً: فإن كان لا بدّ من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل بالأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة، فتعصبوا لخلال الحمد والحفظ بالمفضل والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض.

ومن مظاهر سياسته الخلاقة اهتمامه البالغ بنواحي التربية وشؤون التعليم، فقد اتخذ (ع) جامع الكوفة ميداناً لإلقاء محاضراته الدينية والتوجيهية، فكان يدعو إلى طاعة الله، ويتناول فلسفة التوحيد، ويبث الآداب والأخلاق الإسلامية، مستهدفاً من وراء ذلك، نشر الوعي الديني، وخلق جيل عقائدي يتحمل واجباته اتجاه الله والإنسان. فمواعظه كانت تهز أعماق النفوس خوفاً ورهبة من الله عزَّ وجلَّ، وقد تخرج من جامعتهِ الكبرىٰ عظماء الإسلام وخيار الأمة وصلحائها أمثال حجر بن عدي، وميثم التمار، ورشيد الهجري، ومحمد بن أبي بكر وكميل بن زياد، ومالك الأشتر، وعمار بن ياسر، وصعصعة بن صوحان العبدي وغيرهم من رجال التقوى والصلاح في الإسلام، وقد كانت وصاياه لولديه الحسن والحسين (ع) وسائر تعاليمه من أهم الأسس التربوية في الإسلام حيث قننت أصول التربية، ووضعت مناهجها على أسس تجريبية كانت من أثمن ما يملكه المسلمون في هذا المجال.

لقد كان الإمام أمير المؤمنين (ع) المعلم والباعث الروح العلمية، وهو الذي فتق العلوم في الإسلام وإليه يستند ازدهار الحركة العلمية في العصور الذهبية في الإسلام، وحسب ما نص عليه المحققون فعلومه

بلغت أكثر من ثلاثين علماً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن حكومة الخلفاء الثلاثة لم تهتم بالنواحي التربوية، وشؤون التعليم، وقد أهملتها وعنت بالشؤون العسكرية وعمليات الحروب، ونهجت دولة بني أمية، ودولة بني العباس نفس النهج، مما تسبب ذلك في انعدام الوعي الإسلامي، وظهور الحركات والمبادىء الهدامة.

وكان من مظاهر سياسته الخلاّقة مراقبة عماله وولاته، حيث كان (ع) يحصي عليهم جميع حركاتهم وسكناتهم، ويتوعدهم إن خرجوا عن الطريق السوي، كما كان يزودهم بإرشاداته القيمة في الأمور المالية والإدارية، ويشدد عليهم في مسألة اختيار الموظف الصالح الذي يتمتع بخلقٍ رفيع، وإيمان صادق، وكفاءة عالية بشؤون العمل الذي يعهد إليه.

وفيما يلي بعض كتبه إليهم:

لقد بلغه بأن هبيرة الشيباني عامله على أردشير خرة قد اجتمع عنده مالاً من فيء المسلمين فقسمه بين عشيرته وأهله، فكتب إليه: بلغني عنك أمراً إن كنت فعلته فقد أسخطت إلّهك وعصيت إمامك، إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم وأريقت عليه دماءهم، فيمن إعتامك من أعراب قومك...

فوالذي خلق الحبة وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً لتجدن عليَّ هواناً ولتخفنَّ عندي ميزاناً فلا تستهن بحق ربك ولا تصلح دنياك بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً ألاَّ وأنَّ حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء يردون عندي عليه ويصدرون عنه.

وكتب لزياد بن أبيه . وإني أقسم بالله صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر..

وذات يوم قصدته سودة بنت عمار الهمدانية فأخبرته بأن واليه قد جار عليهم، فبكى ثم قال: اللهمّ أنت الشاهد عليَّ وعليهم وإني لم آمرهم بظلم خلقك، ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم بينة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان وألاَّ تبخسوا الناس أشياءهم فإذا قرأت كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتىٰ يقدم عليك من يقبضه منك والسلام.

لقد كان الإمام (ع) شديداً في محاسبتِهِ لولاته وعمالِهِ، فلا يتهاون على أدنىٰ خيانة فهو يعتبر السلطة وسيلة من وسائل الإصلاح الاجتماعي، فلا يجوز أن تمنح إلاَّ للمتحرجين في دينهم الذين لا يخضعون للرغبات والأهواء، ويجب أن تستغل لتحقيق ما يفيد الناس، فلا يجوز أن تمنح أثرةً، أو محاباة.

قال لرفاعة بن شداد في رسالته: «واعلم يا رفاعة أن هذه الإمارة أمانة فمن جعلها خيانة فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة، ومن استعمل خائناً فإن محمداً (ص) بريء منه في الدنيا والآخرة»[1].

لقد التزم الإمام علي (ع) الصدق والصراحة في جميع شؤونه السياسية، فلم يوارب ولم يخادع، وإنما سلك الطريق الواضحةالتي لا إلتواء فيها، وسار على نهج ابن عمه رسول الله (ص)، ولزم سمته وهديه، ومضىٰ على طريقته، وواكب جميع خطواته، ولو أنه مارس الوسائل الملتوية في سبيل الوصول إلى الحكم لما وصل عثمان إلى السلطة، فضميره الحي المترع بتقوى الله وطاعته أبى أن يتبع أساليب المكر والخداع من أجل الوصول إلى الحكم الذي كان من أزهد الناس فيه، فكان يتنفس الصعداء من الآلام المرهقة التي كان يعانيها من خصومه،

(١) نهج السعادات في مستدرك نهج البلاغة ٥/٣٣.

يقول (ع): «وا ويلاه يمكرون بي، ويعلمون أني بمكرهم عالم، وأعرف منهم بوجوه المكر، ولكني أعلم أن المكر والخديعة في النار، فاصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا...»[1].

لقد كان الإمام يتحدث عن الوسائل المنكرة التي يعتمد عليها بعض الناس في سبيل الوصول إلى أهدافهم من الغدر والنفاق، وينكر على الذين يبرّرون هذه الوسائل ويصفونها بحسن الحيلة قائلاً: «ولا يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، مالهم قاتلهم الله!! قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين..

لقد كان الخلفاء الثلاثة أبو بكرٍ وعمر وعثمان يستميلون السفيه بالطمع، ويضربون الضعيف بالبلاء، ويقوون على القوي بالسلطان، بينما كان الإمام (ع) يحكم بورع الإمامة، وتقوى الخلافة، وزهد العارفين بالله، ولذا كان حريصاً أشد الحرص على أموال المسلمين، وقد ذكرنا كيف كان موقفه من أخيه عقيل حين قدم عليه طالباً زيادة في عطائه.

وإلى القارىء مجموعة من الأمثلة على حرص الإمام على بيت مال المسلمين.

قال هارون بن عنترة عن أبيه: دخلت على علي بالخورنق ـ وهو فصل شتاء ـ وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه فقلت:

---

(١) جامع السعادات ١/٣٠٣.

يا أمير المؤمنين إن الله جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال:

والله ما أرزأكم شيئاً. وما هي إلاَّ قطيفتي التي أخرجتها من المدينة»[1].

وروي النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على عليّ فإذا بين يديه لبن حامض أذتني حموضته وكسرة يابسة. فقلت: يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟. فقال لي: يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ به خفت ألاَّ ألحق به»[2].

وكتب ابن الأثير: أن عاصم بن كليب روى عن أبيه أنه قال: «قدم على عليّ مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم. فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ودعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطي أولاً.

وقال سفيان: إن علياً لم يبن آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة.

وقيل: إنه أخرج سيفاً إلى السوق فباعه وقال: لو كان عندي أربعة دراهم ثم إزار لم أبعه، وكان لا يشتري ممن يعرفه، وإذا اشترى قميصاً قدر كمه على طول يده وقطع الباقي، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: «لا أحب أن يدخل بطني إلاَّ ما أعلم»[3].

إن سياسة الإمام الخلاقة التي أوجدت انقلاباً جذرياً وتحولاً

---

(١) العقاد: «عبقرية الإمام علي» ص ١٣.

(٢) عبقرية الإمام علي ص ٣٥.

(٣) الكامل في التاريخ ٣/ ٣٠٠ ـ ٣٠٣.

اجتماعياً على كافة صعد الحياة كانت في الواقع سياسة تطبيب المنافع العامة. ولم يحدثنا تاريخ السياسات عن نظيرٍ لها، ولولا الحروب التي كانت تشن عليها باستمرار لاستطاعت أن تشيع الحق والعدل والحرية في كافة أصقاع العالم.

ففي زهاء خمس سنوات عجاف كان الإمام أمير المؤمنين (ع) يخرج من معركة ويدخل بأخرى بدءاً من معركة الجمل التي أضرم نيرانها (الناكثون) ومروراً بمعركة (صفين) التي أضرم نيرانها (القاسطون) والتي راح ضحيتها الصحابي الكبير عمار بن ياسر الذي قال له رسول الله (ص): «تقتلك الفئة الباغية»، وانتهاءً بمعركة (النهروان) التي أشعل نيرانها (المارقون)، وسالت أرض النهروان بالدماء كما فاضت من قبل بـ (صفين) وكما طفحت قبلها في (البصرة) غزيرة وكأن دماء المسلمين لم تكن ذات حرمة وكرامة، ومن المسؤول عن هذه الدماء؟ هل الإمام علي الذي هو خليفة رسول الله، أم من شق طاعة المسلمين عليه وخرج محارباً إمام زمانه؟؟.

إن الزمر العفنة التي أضرمت نيران هذه المعارك ضد حكومة الإمام لم يكن لديها أي هدف سوى إسقاط هذه الحكومة العادلة، لتبقى الأموال الطائلة والضياع الشاسعة تحت أياديها، ولتتمتع بزينة الحياة وطيباتها وملذاتها، فتصيبها التخمة، وأن التمس آخرون أقواتهم في مزابل أقوام أغنياء!!.

بعد هذه المعارك كان امتحان الإمام (ع) مراً للغاية، تارةً يواجه كيد الأعداء، وأخرى يواجه خيانة من الوالي. وهو بين ذلك كله مصمم على نهجه القويم، لا يداهن في دينه ولا يتخلى عن سياسته العادلة.

والمحن تتابع عليه ويقفو بعضها إثر بعض، وهو ماضٍ في طريقه لا ينحرف عنه إلى يمين أو شمال».

وفي غمرة النضال وزحمة الصراع مع الباطل يهوى رائد العدالة وحافظ حقوق الإنسان مضرجاً بدمائه الزكية وهو يناجي ربه، والفجر في بداية بزوغه، وكأن الله تبارك وتعالى قد اختار له هذه النهاية الرائعة، ليربط حاضره بماضيه، ونهايته ببدايته، لقد ولد (ع) في بيت الله واستشهد في بيت الله.

فالأيادي الأثيمة التي اغتالت الإمام علي (ع) إنما اغتالت العلم والعرفان والحق والعدل والحرية.. اغتالت البسمة في شفاه المحرومين والمظلومين والأرامل والأيتام، وقد أصيبت الجماهير بالذهول وطاش صوابها لهذه الفاجعة العظيمة.

ولما حمل الإمام إلى داره كانت الجماهير تصرخ وتصيح:
قتل إمام الحق والعدل.
قتل أبو الضعفاء وأخو الغرباء.

وقد استقبلته عائلته الكريمة بالصراخ، فأمرهن (ع) بالخلود إلى الصبر، وغرق الإمام الحسن بالبكاء فالتفت إليه الإمام قائلاً: «يا بني لا تبك فأنت تقتل بالسم، ويقتل أخوك الحسين بالسيف».

وعندما شعر الإمام (ع) بقرب رحيله عن هذه الدنيا الزائلة نصب ولده الإمام الحسن (ع) خليفةً وهادياً للأمة من بعده، بعد أن شهد على وصيته الإمام الحسين (ع) وجميع شيعته وأهل بيته، ودفع إليه الكتاب والسلاح وقال له: يا بني أنت ولي الأمر، وولي الدم، وقد أمرني رسول الله (ص(ودفع إليَّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك

المـوت أن تدفعهـا إلى أخيك الإمـام الحسين (ع) ثم اقبـل على الإمـام الحسين وقال: وآمرك رسول الله (ص) أن تدفعهـا إلى ابنك هـذا ويقصد الإمام زين العابدين، ثم أخذ بيد الإمام زين العـابدين وقـال له: وأمـرك رسول الله (ص) أن تدفعها إلى ابنك (محمد) فاقـرأه من رسول الله (ص) ومني السلام.

وهكذا عين أمير المؤمنين (ع) الأمناء العامـين للرسالـة الإسلاميـة الذين نص عليهم الرسـول (ص). بعد ذلـك التفت الإمام لـولده الإمـام الحسن (ع) وقـال لـه: «هـذا مـا أوصى بـه علي بن أبي طـالب، أوصي بشهادة أن لا إلّه إلَّا الله وحـده لا شريـك له وأن محمـداً عبده ورسـوله، أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليـظهره على الـدين كله ولو كـره المشركـون، وصلى الله على محمـد وسلم ثم إن صلاتي ونسكي ومحيـاي ومماتي لِلّه رب العالمين، لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين.

ثم إني أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتـابي من المؤمنين بتقـوىٰ اللهربكم، ولا تموتُّن إلَّا وأنتم مسلمـون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا فإني سمعت رسول الله (ص) يقـول: «صلاح ذات البين أفضـل من عامـة الصـلاة والصـوم وإن المبيـرة وهي الحـالفـة للدين فساد ذات البين، ولا قوة إلَّا بـالله، انظروا ذي أرحـامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب.

الله الله. في الأيتام لا يضيعـوا بحضـرتـكم، فـقـد سمـعت رسول الله (ص) يقول: من عـال يتيماً حتى يستغني أوجب الله لـه بذلـك الجنة، كما أوجب لآكل مال اليتيم النار.

الله الله: في القرآن فلا يسبقكم إلى العلم به غيركم.

الله الله: في جيـرانكم، فإن رسـول الله (ص) أوصىٰ بهم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.

الله الله: في بيت ربكم فلا يخلوا منكم ما بقيتم، فإنه إن تورك تناظروا وأدنىٰ ما يرجع به من أمه أن يغفر له ما سلف.

الله الله: في الصلاة فإنها خير العمل، إنها عماد الدين.

الله الله: في الزكاة فإنها تطفىء غضب ربكم.

الله الله: في صيام شهر رمضان، فإن صيامه جنة من النار.

الله الله: في الفقراء والمساكين، فشاركوهم في معائشكم.

الله الله: في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم، فإنما يجاهد رجلان إمام هوىٰ أو مطيع له مقتد دال بهداه.

الله الله: في ذرية نبيكم، لا تظلمنَّ بين أظهركم وأنتم تقدرون على المنع عنهم.

الله الله: في أصحاب نبيكم الذين لم يحدثوا حدثاً ولم يأووا محدثاً، فإن رسول الله (ص) أوصى بهم ولعن المحدث منهم، ومن غيرهم والمؤوي للمحدثين.

الله الله: في النساء وما ملكتَ أيمانكم، فإن آخر ما تكلم به نبيكم أن قال: «أوصيكم بالضعيفين: النساء وما ملكت أيمانكم».

الصلاة الصلاة، الصلاة: لا تخافوا في الله لومة لائم، يكفكم من أرادكم وبغيٌّ عليكم. قولوا للناس حسناً كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي الله آمركم شراركم ثم تدعونَ فلا يستجاب لكم عليهم.

عليكم يا بني بالتواصل، والتباذل، والتبادر، وإياكم والتقاطع، والتدابر، والتفرق وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تتعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب وحفظكم الله من أهل بيتٍ، وحفظ نبيكم فيكم، استودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم لم يزل يقول لا إله إلاَّ الله حتى فارقت روحه الحياة، تحفها

ملائكة الرحمٰن، فمادت أركان العدل في الأرض، وانطمست معالم الدين لقد مات ملاذ المنكوبين والمحرومين الذي جهد نفسه أن يقيم في ربوع هذا الكون دولة تكتسح الأثرة والاستغلال، وتقيم العدل والحق بين الناس.

وهكذا انطوت حياة أعظم إنسان عرفه التاريخ البشري، كان مصدر إشعاع الفكر وينبوع الحكمة، ومنهل عذب للخير، ورصيد ضخم في الكمال، وطاقة جبارة في العلم والأدب، ومدرسة كبرى في التربية، ورائد الحق والعدل والحرية، وتستوفي الأمة منه الإيمان الصادق، والعقيدة الحقة، والمثل العليا.

لقد أبرزت حكومة الإمام (ع) الواقع الإسلامي بجميع طاقاته في عالم السياسة والحكم، فالإمام (ع) كان يهدف في حكمه إلى إزالة الفوارق الاجتماعية بين الناس، وتحقيق الفرص المتكافئة بينهم على اختلاف قومياتهم وأديانهم، ومعاملة جميع الطوائف بروح المساواة والعدالة فيما بينهم من دون أن تتمتع أي طائفة بامتياز خاص وقد أوجدت هذه السايسة للإمام رصيداً شعبياً ضخماً، فقد ظل الإمام عليّ قائماً في قلوب الجماهير الشعبية بما تركه من صنوف العدل والمساواة، وقد هام بحبه الأحرار، ونظروا إليه كأعظم مصلح اجتماعي في الأرض، وقدموه على جميع أعلام تلك العصور، يقول أيمن خزيم الأسدي مخاطباً بني هاشم وعلى رأسهم الإمام:

أأجعلكم وأقواماً سواء ... وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لا رؤوسهم وأعينهم سماء[1]

---

(١) الأغاني ١/٣١.

«حكومة الإمام الحسن»

وتـولى الإمام الحسن (ع) أمـر الخلافـة الربـانية والقيـادة الإلّهية، وكان كأبيه علي (ع) ضميره الحي المترع بتقوى الله يـرفض مهادنـة قوى البغي والعدوان، ويحمل ما بين جوانبه علوم عظيمة، فتسلم قيادة حكومة شكلية عصفت بها الفتن، ومزقت جيشها الحـروب والأحزاب، ولـم تعـد أي قاعدة شعبية تستند إليها الدولـة، فالاتجـاه العام الـذي يمثله الوجـوه كان مع معاوية، فقد كانوا على اتصال وثيق به قبل مقتـل الإمام وبعـده، كما كان لهم الدور الكبير في إفساد جيش الإمام حينما مني جيش معاوية بالهزيمـة والفرار. فـالإمام الحسن (ع) بـرغم ظروف التعقيـدا لتي برزت وتأزمت في أواخر حياة أبيه تسلم زعامة التجربة الإسلامية، وأخـذ يدعـو الناس إلى ضبط النفس والتحلي بالصبر ونبذ الخـلافات، والحفـاظ على الأمن، وعدم سماع الإشاعات المغرضة التي كان يروجها الأمويون، كما طمأنهم بأنه سيحذو حذو جده وأبيه، وقد دعاهم إلى مواجهة معاوية وحزبه الذين باتوا يشكلون خطراً كبيراً على الأمة ورسالتها.

وبعـد جهود مكثفـة قام بهـا بعض المخلصين للإمـام نفر للحـرب أخلاط من الناس ـ على حـد تعبير الشيـخ المفيد (رضي) ـ كـان أكثرهم من الخـوارج والشكاكين وذوي الأطمـاع وهذه العنـاصر لم تؤمن بقضيـة الإمام، وقد تطعمت بالخيانة والغدر، ويقول الرواة إن الإمام أسند مقدمة قيادة جيشه لعبيد الله بن العباس الـذي وتره معـاوية بـولديـه ليكون ذلـك داعية إخلاص له وحينما التقى جيشه بجيش معاوية مد إليه معاوية أسلاك

مكره فمناه بمليون درهم يدفع نصفه في الوقت والنصف الآخر إذا التحق به[1]. وسال لعاب عبيد الله، فاستجاب لدنيا معاوية ومال عن الحق، فالتحق بمعسكر البغي والعدوان ومعه ثمانية آلاف من الجيش[2] غير حافل بالخيانة والعار، ولا بالأضرار الفظيعة التي ألحقها بجيش ابن عمه. وبعد هذه الخيانة أخذت أموال معاوية تشق طريقها نحو كبار قادة ذلك الجيش فالتحق معظمهم بمعسكره وتركوا الإمام (ع) في أرباض ذلك الجيش المنهزم يصعد آهته، فلم يبقَ معه سوى بعض القادة المخلصين للرسالة.

ولم يقتصر بلاء الإمام على خيانة قادة جنده، وإنما راح يواجه المحاولات التي استهدفت حياته الشريفة، حيث تعرض إلى ثلاث محاولات، في الأولى طعنه أحد الخونة في فخده ونقل على أثرها إلى المواني لمعالجة جرحه[3].

وفي المحاولة الثانية طعنه أحد جواسيس معاوية بخنجرٍ وهو يصلي. وفي المحاولة الثالثة رماه أحد الخونة بسهم في أثناء صلاته إلَّا أنه لم يؤثر فيه شيئاً.

هذا الامتحان المرّ، وهذه المحن الشاقة لم تثنِ من عزيمة الإمام على محاربة سليل الانحراف وإطفاء نار الفتنة التي أشعلها بين الأمة، فكان باستمرار يدعو إلى حربه، لكن الناس لم يمتثلوا لنداء الحق نتيجة ما يغدقه عليهم معاوية من المال والجاه.

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤/٣٨.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٣/١٩١.
(٣) الإرشاد (ص ١٧٠).

ولما رأى الإمام خيانة أهل الكوفة له وانحيازهم إلى معاوية راح يخاطبهم قائلاً:

«وأيم الله لا ترى أمة محمد خصباً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية، ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تصدوا عنها حتىٰ تهلكوا لطاعتكم طواغيتكم إلى شياطينكم، فعند الله احتسب ما مضى وما ينتظر من سوء رغبتكم وحيف حلمكم..».

«عرفت أهل الكوفة وتلونهم ولا يصلح لي منهم ما كان فاسداً إنهم لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ولا فعل إنهم لمختلفون ويقولون إن قلوبهم معنا وسيوفهم لمشهورة علينا» «.. أما والله ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلة ولا قلة ولكن نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشيب السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع وكنتم تتوجهون معنا ودينكم أمام دنياكم وقد أصبحتم الآن، ودنياكم أمام دينكم وكنتم لنا، وقد صرتم علينا».

ونتيجة للخيانات العظمىٰ التي حصلت في جيشه صار الإمام بين خيارين:

١ ـ أن يقاتل معاوية بأصحابه وأهل بيته الذين بايعوه حتىٰ الموت لأنهم كانوا يرونه إمام مفترض الطاعة، منصوص عليه.. وهو على يقين بأن الغلبة لمعاوية.

٢ ـ أن يقبل بالصلح فيحفظ للإسلام رجاله ودعاته، ويبرز واقع معاوية، ويكشف عنه ذلك الستار الضعيف الذي تستر به.

وبمواجهة هذا الواقع وقف الإمام الحسن (ع) موقف الحازم اليقظ الذي تمثلت فيه الحكمة بجميع رحابها ومفاهيمها، فاختار الصلح على ما فيه من قذى في العين، وشجى في الحلق.

وإنما قبل الإمام بالهدنة لقلة الأعوان المخلصين، ولهذا يقول (ع): «والله إني ما سلمت الأمر إلاَّ لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهار حتى يحكم الله بيني وبينه».

لقد رفض الإمام أن يخوض معركة يائسة يستشهد فيها جميع رجال الإسلام، لذا يقول (ع): «إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين ناع».

وبعد وصول معاوية إلى سدة الحكم عرف الناس من هو معاوية، وما هو واقعه. وواقع أطروحته، ومن كان الإمام علي، وماذا كانت أطروحته.

لقد استجاب الإمام الحسن (ع) لدعوة الصلح في وقتٍ أصبحت فيه الاستجابة نصراً على معاوية وفضحاً لسياسته المخادعة، وكشفاً لخلقه السيء، وقد شعر معاوية بما ركزه الإمام الحسن من مسمارٍ في نعش الكيان الأموي المستبد من وراء هذا الصلح.

بعد إقصائه من زعامة التجربة الإسلامية قام الإمام بوضع القواعد الأساسية اللازمة للحفاظ على الرسالة، وحصّن الأمة بالحد الأدنىٰ من التحصين ضد الهجمة الجاهلية التي كانت تريد عزلها عن رسالتها، كما أعطى القاعدة الرسالية مزيداً من الشحنات في العلم والتقوى لتكون المسؤولة عن تعبئة الجماهير بمحتوى التغيير الرسالي للإسلام.

إن قوى البغي والعدوان وربيبها معاوية كانوا يتوخون من وراء الهدنة الاستيلاء على الأمة وعزلها عن رسالتها، لكنهم لم يدركوا أن هذه الهدنة ما هي إلاَّ رقدة بعدها صحوة ستقض مضاجعهم وتحصن الإسلام بحصونٍ لا ترام.

فالدور الإيجابي للإمام الحسن (ع) وتحركه الفاعل على مسرح الأحداث هو الذي جعل هذه القوى أن تقتله بالسم.

إن أئمة أهل البيت (ع) بالرغم من إقصائهم عن الخلافة، كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وتحصين الأمة ضد التردي إلى الهاوية، هاوية الانحراف والانزلاق عن مبادئها وقيمها. فكلما كان الانحراف يقوى ويشتد، وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان أئمة أهل البيت (ع) يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك.

وقد تمثل الدور الإيجابي للأئمة في تحريك الضمير الثوري عند الإنسان المسلم والحفاظ على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية من الانهيار. والتنازل المطلق للحكام المنحرفين.

فمعاوية وأضرابه من الحكام كانوا يحكمون الأمة باسم الإسلام لكنهم في واقع الأمر بعيدون كل البعد عن تطبيقه حتى أصبحت مفاهيم الكتاب والسنة في واد، وهم في وادٍ آخر.

وعلى أي حال فإن معاوية حينما أُخبر باستشهاد الإمام الحسن (ع) طار فرحاً وأخذ يكبر، وجلاوزتهُ يكبرون معهُ، ولما سألته زوجته فأخته بنت قرطبة عن سر التكبير وسبب سروره قال لها بلغني موت الحسن بن علي فقالت إنا لله وإنا إليه راجعون أعلى موت ابن فاطمة تكبير؟!.

فقال لها ما كبرت شماتة ولكن استراح قلبي منه.

ومن أجوبة الإمام الحسن (ع) لبعض المسائل:

قيل له (ع): ما الزهد؟. قال الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا: قيل: فما الحلم؟ قال: كظم الغيظ وملك النفس. قيل: ما السداد؟ قال: دفع المنكر بالمعروف. قيل: فما الشرف؟ قال: اصطناع

العشيرة وحمل الجريرة. قيل: فما النجدة؟ قال: الذبُّ عن الجار والصبر في المواطن والإقدام عند الكريهة. قيل: فما المجد؟ قال: أن تعطي في الغُرم وأن تعفو عن الجرم. قيل: فما المروَّة؟ قال: حفظ الدين وإعزاز النفس ولين الكنف وتعهد الصنيعة وأداء الحقوق والتحبب إلى الناس. قيل: فما الكرم؟ قال: الابتداء بالعطية قبل المسألة وإطعام الطعام في المحل قيل: فما الدنيئة؟ قال: النظر في اليسير ومنع الحقير. قيل: فما اللؤم؟ قال: قلَّة الندى وأن ينطق بالخنى. قيل: فما السماح؟ قال: البذل في السراء والضراء. قيل: فما الشح؟ فقال: أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً. قيل: فما الإخاء؟ قال: الإخاء في الشدَّة والرخاء. قيل: فما الجبن؟ قال: الجرأة على الصديق والنكول عند العدوِّ. قيل: فما الغنى؟ قال: رضى النفس بما قسم لها وإن قلَّ: قيل: فما الفقر؟ قال: شره النفس إلى كلِّ شيء. قيل: فما الجود؟ قال: بذل المجهود. قيل: فما الكرم؟ قال: الحفاظ في الشدة والرخاء.

ومن حكمه (عليه السلام):

أيها الناس إنه من نصح لله وأخذ قوله دليلاً هدى للتي هي أقوم، ووفقه الله للرشاد وسدَّده للحُسنى فإن جار الله آمنٌ محفوظ وعدّوه خائف مخذول فاحترسوا من الله بكثرة الذكر. واخشوا الله بالتقوى وتقربوا إلى الله بالطاعة فإنه قريبٌ مجيب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ** ﴾. فاستجيبوا لله وآمنوا به فإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم، فإن رخصة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا و (عزُّ) الذين يعرفون ما جلال الله أن يتذلّلوا (له) وسلامة الذين يعلمون ما قدرة الله أن يستلموا ولا له ولا ينكروا أنفسهم بعد المعرفة ولا يضلوا بعد الهدى. واعلموا علماً يقيناً أنكم لن تعرفوا شيء تعرفوا صفة

الهدى. ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه. ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرَّفه. فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلُّف ورأيتم الفرية على الله والتحريف. ورأيتم كيف يهوى من يهوى. ولا يجهلنَّكم الذين لا يعلمون. والتمسوا ذلك عند أهله، فإنهم خاصة نور يُستضاء بهم وأئمة يقتدى بهم، بهم عيش العلم وموت الجهل، وهم الذين أخبركم حلمهم عن جهلهم، وحكم منطقهم عن صمتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الحق، ولا يختلفون فيه. وقد خلت لهم من الله سنَّة. ومضى فيهم من الله حُكم إن في ذلك الذكرى للذاكرين واعقلوه إذا سمعتموه عقل رعايته ولا تعقلوه عقل روايته، فإن رواة الكتاب كثير، ورعاته قليل، والله المستعان.

كلامه عليه السلام في الاستطاعة:

كتب الحسن بن أبي الحسن البصري إلى أبي محمد الحسن بن علي (عليهما السلام):

أما بعد، فإنكم معشر بني هاشم الفلك الجارية في اللجج الغامرة والأعلام النيرة الشاهرة أو كسفينة نوح (عليه السلام) التي نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون، كتبت إليك يا ابن رسول الله عند اختلافنا في القدر وحيرتنا في الاستطاعة، فأخبرنا بالذي عليه رأيك ورأي آبائك (عليهم السلام) فإن من علم الله علمكم وأنتم شهداء على الناس والله الشاهد عليكم، ذرّية بعضها من بعض، والله سميع عليم.

فأجابه الحسن (ع): بسم الله الرحمن الرحيم، وصل إليَّ كتابك، ولولا ما ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذا ما أخبرتك، أما بعد، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره إن الله يعلمه فقد كفرو من أحال المعاصي على الله فقد فجر. إن الله لم يطع مكرهاً ولم يعص مغلوباً

ولم يهمل العباد سدى من المملكة بل هو المالك لما ملّكهم والقادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخييراً ونهاهم تحذيراً فإن ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صادّاً وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمنّ عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل وإن لم يفعل فليس هو الذي !ملهم عليها جبراً ولا ألزموها كرهاً بل منّ عليهم بأن بصرهم وعرّفهم وحذرهم وأمرهم ونهاهم لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكون كالملائكة ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه، ولله الحجة البالغة، فلو شاء لهديكم أجمعين، والسلام على من اتبع الهدى.

(وروى عنه عليه السلام في قصار هذه المعاني).

قال (ع): ما تشاور قوم إلاّ هدوا إلى رشدهم.

وقال (ع): اللؤم أن لا تشكر النعمة.

وقال (ع): لبعض ولده: يا بُنيَّ لا تواخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة ورضيت العشرة فآخه على إقالة العثرة والمواساة في العسرة.

وقال (ع): لا تجاهد الطلب جهاد الغالب ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم، فإن ابتغاء الفضل من السنّة والإجمال في الطلب من العفة وليست العفة بدافعه رزقاً ولا الحرص بجالب فضلاً، فإن الرزق مقسومٌ واستعمال الحرص استعمال المآثم.

وقال (ع): القريب من قرّبته المودة وإن بَعد نسبه. والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه، ولا شيء أقرب من يد إلى جسد، وإن اليد تغل فتقطع وتحسم.

وقال (ع): الخير الذي لا شرّ فيه: الشكر مع النعمة والصبر على النازلة.

موقف الرسول (ص) من مستقبل الأمة

وبعد انتهائه من مراسيم تنصيب الإمام أمير المؤمنين خليفة وهادياً للأمة من بعده شد النبي (ص) رحاله وكرَّ راجعاً إلى يثرب، وبعد وصوله إليها بأيام مرض (ص) مرضاً شديداً، فكان عليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعواده أيديهم عليها شعروا بشدة حرارتها[1] وكان إلى جواره ماءً بارداً فما زال (ص) يضع فيه يده الشريفة ويمسح به وجهه الكريم، وكان يقول: ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع ابهري من ذلك. وتزاحم الناس حول معلمهم ومنقذهم العظيم، وقد هيمن عليهم الأسى والحزن والذهول، فنعى (ص) إليهم نفسه الكريمة وذكرهم بأمور دينهم ودنياهم وأمرهم بالتمسك بكتاب الله عزَّ وجلَّ وعترته أهل بيته قائلاً: «أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم إلاَّ أني مخلف فيكم كتاب الله عزَّ وجلَّ وعترتي أهل بيتي». ثم أخذ بيد وصيه وباب مدينة علمه الإمام أمير المؤمنين (ع) قائلاً لهم: «هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض»[2].

لقد تناول خاتم الرسل والأنبياء (ص) وهو في الساعات الأخيرة من

(١) البداية والنهاية ٥/٣٣٦.
(٢) الصواعق المحرقة.

عمره الشريف القضايا المصيرية، وعين القائد العادل الذي يحفظ للأمة كيانها وشرفها وأصالتها، وتنال به جميع طموحاتها. واستبانت النفوس الشهوية للمال والسلطان للرسول الأعظم (ص) وأيقن أنها جادة في مخططاتها الرامية لصرف الخلافة عن ولي عهدهِ وباب مدينة علمهِ الإمام أمير المؤمنين (ع)، فرأى (ص) أن خير وسيلة يتدارك بها الموقف أن يبعث بجميع أصحابه لغزو الروم حتى تخلو عاصمته منهم ليتم الأمر إلى الإمام علي (ع) بسهولة ودون فوضى، فأمر أعلام صحابته من المهاجرين والأنصار بذلك وكان منهم ـ فيما يقول المؤرخون ـ أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الجراح وبشير بن سعد[1] وأَمرَّ عليهم أسامة بن زيد وهو شاب حدث السن، وقال (ص) لأُسامة:

سر إلى موضع قتل أبيك فاوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فاغز صباحاً على أهل ابني[2] وخرق عليهم، واسرع السير لتسبق الأخبار فإن ظفرك الله عليهم فاقلل اللبث فيهم، وخذ معك الادلاء، وقدم العيون والطلائع معك..».

وفي اليوم التاسع والعشرين من صفر رأى (ص) جيشه قد منى بالتمرد فلم يلتحق أعلام الصحابة بوحداتهم العسكرية فساءه ذلك، وخرج مع ما به من المرض الشديد فحثهم على المسير، وعقد اللواء لأسامة وقال له: «اغز بسم، وفي سبيل الله، وقاتل من كفر بالله..».

فخرج أسامة بلوائه معقوداً ودفعه إلى بريدة وعسكر بـ (الجرف) ولكن الصحابة الذين تمردوا على أوامر الرسول (ص) ظلوا على عصيانهم، وأظهروا الطعن والاستخفاف بالقائد العام للجيش يقول له عمر بن الخطاب:

---

(١) كنز العمال ٥/٣١٣.

(٢) ابني: ناحية بالبلقاء من سوريا بين عسقلان والرملة بالقرب من مؤتة.

«مات رسول الله وأنت عليَّ أمير؟!!».

وانتهت هذه الكلمة التي تحمل ما تحمل من أضغان وأحقاد للإسلام ولرجاله الأبرار إلى الرسول (ص) فغضب (ص) وخرج وهو معصب الرأس قد دثر بقطيفة، وقد برح به الأسى والحزن، فصعد المنبر وأظهر سخطه على عدم تنفيذ أوامره قائلاً:

«أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ ولئن طعنتم في تأميري أسامة، لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وأيم الله أنه كان لخليقاً بالإمارة وأن ابنه من بعده لخليق بها..».

ثم نزل (ص) عن المنبرو دخل بيته[1] وجعل يوصي أصحابه بالالتحاق بأسامة وهو يقول لهم:

«جهزوا جيش أسامة».

«نفذوا جيش أسامة».

لعن الله من تخلف عن جيش أسامة».

ولم يثر هذا التأكيد حفائظ نفوس القوم لأنهم كانوا ينتظرون الفرصة الذهبية التي تتيحها لهم وفاة الرسول (ص) فيغتصبوا الخلافة من الإمام علي (ع). واستشف الرسول (ص) من التحركات السياسية المشبوهة التي صدرت من أعلام صحابته أنهم يريدون لأهل بيته الغوائل ويتربصون بهم الدوائر، وأنهم مجمعون على صرف الخلافة عنهم، فرأى أن يصون أمته من الزيغ، ويجمعها من الفتن فقال (ص): «إئتوني بالكتف والدواة اكتب لكم كتاباً لن تظلوا بعده أبداً»[2].

---

(١) السيرة الحابية ٣/ ٣٤.

(٢) الرواية عند الطبراني في الأوسط والبخاري وغيرهم.

وهل هناك نعمة على المسلمين أعظم من هذه النعمة؟ أنه ضمانة من سيد الكائنات الذي لا ينطق عن الهوى ولا تأخذه العواطف ـ أن لا تضل أمته في مسيرتها، وتواكب الحق، وتهتدي إلى سواء السبيل.

إنه صيانة لتوازن الأمة واستقامتها، وضمان لرخائها وأمنها، وتطور لحياتها.

حقاً كانت فرصة من أثمن الفرص في حياة أمة قد شارف معلمها ومنقذها على الرحيل إلى جوار ربه، ولكن القوم لم يستغلوها فقد علموا قصد الرسول (ص) وأنه سينص على الإمام (ع) وتضيع بذلك أطماعهم فرد عليه بن الخطاب: «حسبنا كتاب الله..» وكان هذا الرد بداية المؤامرة القذرة التي استهدفت وجود الأمة كافة وتحويل الوجود إلى السلطان والحاكم.

فعمر أطلق هذه العبارة كإعلان عن موقف القوى الرأسمالية المعادي لولي عهد الرسول الإمام أمير المؤمنين الذي كان تعبيراً وتأكيداً لوجود الأمة في الميدان.

وكثر الخلاف بين القوم فطائفة حاولت تنفيذ ما أمر به الرسول (ص)، وطائفة أخرى أصرت على معارضتها خوفاً على فوات مصالحها، وانطلقت النسوة من وراء الستر فأنكرن عليهم هذا الموقف المتسم بالجرأة على النبي (ص) وهو في ساعاته الأخيرة من حياته الشريفة، فقلن لهم: «ألا تسمعون ما يقول رسول الله؟!!».

فثار عمر وصاح فيهن خوفاً على فوات مصالحهم: إنكن صويحبات يوسف إذا مرض عصرتن أعينكن، وإذا صحَّ ركبتن عنقه..». فرمقه النبي (ص) وصاح به: دعوهن فإنهن خير منكم..».

وتعاظم الصراع بين القوم وكادت المجموعة التي كانت تطالب

بتنفيذ ما أمر به الرسول (ص) فانبرى عمر فسدد سهماً لما رامه النبي (ص). وأفسد عليه ما أراد قائلاً: «إن النبي ليهجر. .»[1].

لقد دفعته أطماعه السياسية لاقتحام مقام النبي (ص) الذي عصمه الله تبارك وتعالى من الهجر وغيره مما ينقص الناس قال تعالى: ﴿ **ما ضلَّ صاحبكم وما غوَى وما ينطِقُ عن الهوى إن هو إلاَّ وحيٌ يُوحَى** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون** ﴾.

لقد وعى عمر وغيره آيات الله في حق النبي (ص). فليس لديهم أدنى شك في عصمته وتكامل شخصيته، ولكن الأطماع السياسية دفعتهم إلى هذا الموقف. ومن تلك اللحظة التي اقتحم بها عمر مقام النبي (ص) صار الإلحاد والمروق على الدين، وظلت النفوس مترعة بروح الجاهلية ونزعاتها، فقد طعنت كلمة عمر من دون شك المصالح البشرية لأنها استحالت دون الصوت الإصلاحي، فحبر الأمة عبد الله بن عباس إذا ذكرها يبكي بكاءً شديداً، فيقول: «يوم الخميس، وما يوم الخميس؟!! قال رسول الله (ص): «اتوني بالكتف والدواة اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فقالوا: إن رسول الله يهجر. . .»[2].

وهكذا استطاعت التيارات الحزبية أن تحول دون تنفيذ الأمر الذي أراد به الرسول (ص) صيانة أمته من الزيغ والانحراف، وهدايتها إلى سواء السبيل وضمان لرخائها وأمنها.

---

(١) هذه الحادثة نص عليها جميع المؤرخين في الإسلام، وذكرها البخاري في صحيحه، وفي نهاية غريب الحديث، وشرح النهج المجلد الثالث (ص ١١٤) تصريح باسم القائل.

(٢) مسند أحمد ١/٣٥٥ وغيره.

وقرب الوقت لتلك الروح العظيمة التي لم يخلق الله تعالى نظيراً لها فيما مضى من سالف الزمن وما هو آت، أن تفارق هذه الحياة لتنعم بجوار الله ولطفه، وجاء ملك الموت فاستأذن بالدخول على الرسول (ص) فأخبرته الزهراء بأن رسول الله (ص) مشغول بنفسه عنه، فانصرف وعاد بعد قليل يطلب الإذن، فأفاق الرسول (ص) من إغمائه، وقال لابنته:

«أتعرفيه؟».

لا يا رسول الله».

«إنه معمر القبور، ومخرب الدور، ومفرق الجماعات».

وقُدَّ قلب الزهراء (ع) وأحاط بها الذهول وأخرسها الخطب، واندفعت تقول: «واويلتاه لموت خاتم الأنبياء، وامصيبتاه لممات خير الأتقياء، ولانقطاع سيد الأصفياء، واحسرتاه لانقطاع الوحي من السماء فقد حرمت اليوم كلامك..».

وتصدع قلب النبي (ص) واشفق على بضعته فقال لها: «لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقاً بي»[1].

وأذن النبي (ص) بالدخول لملك الموت، فلما مثل أمامه قال له: «يا رسول الله، إن الله أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها وإن أمرتني أن أتركها تركتها..».

فبهر النبي (ص) وقال له:

«أتفعل يا ملك الموت ذلك؟».

«بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني».

---

(١) درة الناصحين (ص ٦٦).

وهبط جبرائيل على النبي (ص) فقال له:
«يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك»[1].

واختار النبي (ص) جوار ربه، فأذن لملك الموت بقبض روحه العظيمة ولما علم أهل البيت (ع) إن النبي (ص) سيفارقهم في هذه اللحظات خفوا إلى توديعه وجاء السبطان فألقيا بأنفسهما عليه وهما يذرفان الدموع والنبي (ص) يوسعهما تقبيلاً فأراد أمير المؤمنين (ع) أن ينحيهما عنه فأبى النبي (ص) وقال له:
«دعهما يتمتعان مني واتمتع منهما فستصيبهما بعدي إثرة..». ثم التفت (ص) إلى عواده فقال لهم:
قد خلفت فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فالمضيع لكتاب الله كالمضيع لسنتي، والمضيع لسنتي كالمضيع لعترتي إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض...»[2].!

وقال لوصيه الإمام أمير المؤمنين (ع):
«ضع رأسي في حجرك فقد جاء أمر الله، فإذا فاضت نفسي فتناولها وامسح بها وجهك، ثم وجهني القبلة، وتولى أمري، وصل علي أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله عزَّ وجلَّ..».

وأخذ الإمام (ع) رأس النبي (ص) فوضعه في حجره، ومدَّ يده اليمنى تحت حنكه، وقد شرع ملك الموت بقبض روحه الطاهرة والرسول (ص) يعاني آلام الموت حتى فاضت روحه الزكية فمسح بها الإمام وجهه[3].

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/٤٨.
(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١/١١٤.
(٣) المناقب ١/٣٩ وكنز العمال ٤/٥٥ وغيرها.

وخبأ نور العدل والحق، ومضى إلى الرفيق الأعلى من كان رحيماً بالمؤمنين شديداً على الكافرين من كانت حياته رحمةً ونوراً للناس جميعاً. ووجم المسلمون وطاشت أحلامهم، وعلاهم الفزع والجزع، والذعر وهرعت نساء المسلمين، وقد وضعن أزواج النبي (ص) الجلابيب عن رؤوسهن يلتدمن صدورهن، ونساء الأنصار قد ذابت نفوسهن من الحزن وهن يضربن الوجوه حتى ذبحت حلوقهن من الصياح(١).

وكان أكثر أهل بيته لوعة، وأشدهم حزناً بضعته الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) فقد ارتمت على جثمانه، وهي تبكي أمر البكاء وأقساه وهي تقول:

«وأبتاه، وارسول الله، وانبي الرحمتاه، الآن لا يأتي الوحي الآن ينقطع عنا جبرائيل، اللهمّ الحق روحي بروحه، واشفعني بالنظر إلى وجهه، ولا تحرمني أجره وشفاعته يوم القيامة»(٢).

وتولى الإمام أمير المؤمنين (ع) تجهيز النبي (ص) ولم يشاركه أحد فيه فقام في تغسيله وهو يقول: «بأبي أنت وأمي، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء، وأخبار السماء خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لانفذنا عليك ماء الشؤون ولكان الداء مماطلاً، والكمد محالفاً..»(٣).

وكان العباس عم النبي (ص) وأسامة يناولانه الماء من وراء الستر،

---

(١) أنساب الأشراف ق ١/ جـ ١/ ٥٧٤.

(٢) تاريخ الخميس ٢/ ١٩٢.

(٣) نهج البلاغة محمد عبده ٣/ ٣٥٥.

وكان الطيب يخرج من بدن رسول الله (ص) والإمام يقول: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله طبت حياً وميتاً»[1].

وأول من صلى على الجثمان المقدس هو الله تبارك وتعالى من فوق عرشه ثم جبرائيل، ثم إسرافيل، ثم الملائكة زمراً زمراً[2].

وصلّى عليه الإمام أمير المؤمنين (ع) وأقبل المسلمون للصلاة على الجثمان المقدس فقال لهم الإمام (ع): لا يقوم عليه إمام منكم، هو إمامكم حياً وميتاً، فكانوا يدخلون عليه رسلاً رسلاً فيصلون عليه صفاً صفاً ليس لهم إمام وأمير المؤمنين (ع) واقف إلى جانب الجثمان المقدس وهو يقول؛:

«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته اللهمّ إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلمته فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه، وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه».

ولما فرغ المسلمون من الصلاة على الجثمان المقدس قام الإمام علي (ع) في غلس الليل فوارى الجثمان العظيم في مثواه الأخير، ووقف على حافة القبر وهو يروي ترابه بماء عينيه، وقال بصوت خافت حزين النبرات:

«إن الصبر لجميل إلاّ عنك، وإن الجزع لقبيح إلاّ عليك، وإن المصاب بك لجليل وأنه قبلك وبعدك لجليل..».

---

(١) طبقات ابن سعد القسم الثاني (ص ٦٣).
(٢) حلية الأولياء ٤/٧٧.

لقد انطوت ألوية العدل، ومادت أركان الحق، وانطفأ نور الحرية، وارتفع ذلك اللطف الإلّهي الذي غيَّر مجرى الحياة إلى واقع مشرق تتلاشى فيه آهات المظلومين والمعذبين ولا يكون فيه ظل للحاجة والحرمان، ويجد فيه الإنسان جميع ما يصبوا إليه من الدعة والأمن والاستقرار.

وفي هذه الأثناء كانت الرياح العاتية تبعث بلهيبها لتكوي بيت أمير المؤمنين الطاهر، ولتسحق طاقات الإسلام وأجهزته، وتقضي على المنهاج التجريبي الذي رسمه النبي (ص) للأمة.

لقد حفلت وفاة الرسول (ص) بأحداث رهيبة بالغة الخطورة كان من أفجعها وأقساها إقصاء العترة الطاهرة عن الشؤون السياسية في البلاد وجعلها في معزل عن واقع الحياة الاجتماعية، في حين أن الأمة كانت بأمس الحاجة لها لأنها تتمتع بطاقات فكرية وعلمية هائلة.

إن الأطماع السياسية بعد وفاة النبي (ص) انتشرت بشكلٍ سافر عند كثير من الصحابة مما أدى إلى تشكيلهم للأحزاب النفعية التي لم تكن تنشد في مخططاتها السياسية سوى التربع على كرسي الحكم والسيطرة على خيرات الأمة.

«وقائع اجتماع السقيفة»

لقد كان اجتماع السقيفة الذي عقده الأنصار للاستيلاء على الحكم، والاستبداد بشؤون الدولة الحجر الأساسي لتدهور الأمة، وما عانته من المحن والآلام، فقد برزت فيه الأهواء والأطماع يقول بولس سلامة:

وتوالت تحت السقيفة أحدا ث أثارت كوامنا وميولا
نزعات تفرقت كغصون الـ ـعوسج الغض شائكاً مدخولاً

فالأنصار كانوا مجتمعين في سقيفتهم يدبرون أمرهم ويتداولون الرأي في شؤون الخلافة والبيعة إذ خرج من اجتماعهم وهم لا يشعرون عويم بن ساعدة الأوسي، ومعن بن عدي حليف الأنصار وكان من أولياء أبي بكر على عهد رسول الله (ص) ومن أعضاء حزبه وكانت نفوسهما مترعة بالحقد والكراهية لسعد بن عبادة زعيم الخزرج، وانطلقا مسرعين وأخبرا أبا بكر وعمر بذلك ففزعا وانطلقا مسرعين ومعهما أبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ومعهم جماعة من المهاجرين فكبسوا الأنصار في اجتماعهم وأسقط ما بأيدي الأنصار وذهلوا وتغير لون سعد وتخوف من خروج الأمر عنهم لأن التفلل والتصدع وقع فيهم.

لقد وضع سعد كافة الترتيبات اللازمة من أجل إحاطة اجتماعهم بالسرية والكتمان خوفاً من المهاجرين ولكن دخول المهاجرين المباشر نسف كل شيء وأفشل مساعيه في عقد البيعة له.

وبعد أن دخل المهاجرون في اجتماع الأنصار أراد عمر أن يتحدث فزجره أبو بكر وذلك لعلمه بشدته وهي لا تنجح في مثل هذا الموقف المليء بالأحقاد والأضغان فانبرى أبو بكر قائلاً: «نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأمسهم برسول الله (ص) وأنتم اخواننا في الإسلام وشركائنا في الدين نصرتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلاّ لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على أخوتكم المهاجرين، ما فضلهم الله به فقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين - يعني عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح . . » .

ولا بدّ لنا من وقفة قصيرة للنظر في هذا الخطاب:

١ - لم يذكر أبا بكر فاجعة الرسول (ص) التي مادت لها الأرض وتصدعت القلوب وكان الأجدر به أن يعزيهم بوفاة منقذهم ويذكرهم بإحسانه وبره بدينهم ودنياهم، ثم يدعوهم إلى تشييع جثمانه المقدس.

٢ - على تقدير أن النبي (ص) لم ينصب خليفة بعده، فكان الأجدر به أن يدعو إلى عقد مؤتمر عام تحضره جميع الطبقات من المسلمين لينتخبوا عن إرادتهم وحريتهم من يرضونه خليفة لهم.

٣ - لقد تجاهل أبو بكر حق العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن المجيد أو كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق، فكان الأولى التريث بالأمر حتى يأخذ رأي أهل البيت (ع) لتحمل الخلافة طابعاً شرعياً، ولا توصم بالفلتة كما وصفها عمر إذ يقول: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها».

٤ ـ كان منطق الخطاب يدور حول الأمرة والسلطان، فقد تجاهل أبو بكر بالمرة دور الأمة، كما تجاهل أصحاب الحل والعقد. كالمقداد وسلمان وأبي ذر وغيرهم.

٥ ـ لما رشح أبو بكر من يريد من حزبه فهو لم يكن صادقاً بهذا الترشيح ولكن أراد أن يعلم المجتمعين بأنه لا حاجة له بالخلافة وبالتالي ليفسح المجال أمام حزبه ليتدخل لحسم الموقف ويرشحه للخلافة.

ويقول المؤرخون: إن المنطق الذي استند إليه أبو بكر لأحقية المهاجرين من قريش بالخلافة هم أنهم أمس رحماً برسول الله (ص) وأقربهم إليه، وهذا الملاك على أكمل وجوهه، وأتم رحابه متوفر في أهل البيت (ع) فهم أقرب الناس به وأمسهم به، وما أروع قول الإمام أمير المؤمنين (ع) «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة» وخاطب أبا بكر قائلاً:

فإن كنت بالقربى حججت خصيمهم ... فغيرك أولى بالنبي وأقرب
وإن كنت بالشورى ملكت أمورهم ... فكيف بهذا والمشيرن غيب

وقال (ع): «والله إني لأخوه.. أي أخ النبي (ص) ووليه، وابن عمه ووارث علمه فمن أحق به مني..».

فالقوم أنستهم أطماعهم وأهوائهم ما ألزمهم به النبي (ص) من التمسك بعترته وعدم التقدم عليها، ووجوب رعايتها في كل شيء.

وانبرى عمر فأيد مقالة صاحبه قائلاً: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن. والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم. ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلان المبين من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته؟ ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة..».

فرد عليه الحباب قائلاً:

«يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبو عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم.. والله.. أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم وإن الناس لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، أنا شبل في عرينة الأسد، والله لو شئتم لنعيدها جذعة، والله لا يرد أحد علي ما أقول إلاَّ حطمت أنفه بالسيف..».

فصاح به عمر: إذاً يقتلك الله».
فقال له الحباب: بل إياك يقتل.

وخوفاً من تطور الأحداث التفت أبو بكر إلى الأنصار فرشح للخلافة صاحبيه عمر وأبا عُبيدة فأسرع إليه عمر، فأجابه بلباقة: أيكون هذا وأنت حي؟ ما كان أحد ليوخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله (ص) ويقول بعض المحققين: لا نعلم أنه متى أقامه رسول الله (ص) أو دلَّ عليه وإنما كان مع بقية إخوانه من المهاجرين جنوداً في سرية أسامة، ولو كان قد رشحه لمنصب الخلافة وأقامه علماً ومرجعاً للأمة لأقامه معه في يثرب، وما أخرجه إلى ساحات الجهاد، وهو (ص) في الساعات الأخيرة من حياته.

وخوفاً من فوات الأمر من أيديهم سارع أعضاء حزبه إلى بيعته فبايعه عمر وبشير، وأسيد بن خضير، وعويم بن ساعدة، ومعن بن عدي وأبو عبيدة بن الجرّاح، وسالم مولى أبي حذيفة، وخالد بن الوليد، وقد اشتد هؤلاء النفر في حمل الناس وإرغامهم على مبايعته، وفيما يقول المؤرخون: إن عمر كان من أشدهم اندفاعاً وحماساً وقد لعبت درته

شوطاً في الميدان. ولما تمت البيعة إلى أبي بكر أقبل به حزبه يزفونه إلى مسجد رسول الله (ص) زفاف العروس[1]، والنبي (ص) مسجى في فراش الموت لم يغيبه عن عيون القوم مثواه قد انشغل الإمام أمير المؤمنين (ع) بتجهيزه، ولما علم (ع) ببيعة أبي بكر تمثل بقول القائل:

وأصبح أقوام يقولون ما اشتهوا ... ويطغون لما غال زيداً غوائل[2]

وقد ابتهج القرشيون ابتهاجاً كبيراً ببيعة أبي بكر، واعتبروها انتصاراً لهم فقد تحققت آمالهم وأحلامهم، وقد عبر عن مدى سرورهم أبو عبرة القرشي بقوله:

شكراً لمن هو بالثناء حقيق ... ذهب اللجاج وبويع الصديق
من بعد ما زالت بسعد نعله ... ورجاء رجاءً دونه العيوق
إن الخلافة في قريش ما لكم ... فيها ورب محمد معروق[3]

لقد عمت الأفراح والمسرات جميع القبائل القرشية، ووقفت موقف التأييد لحكومة أبي بكر، ولما بلغ أهل مكة موت النبي (ص) أرادوا أن يعلنوا الردة والخروج عن الإسلام ألاَّ أنهم لما علموا بخلافة أبي بكر أذعنوا وأعلنوا الرضا والسرور.

وقد تميز موقف أهل البيت (ع) اتجاه خلافة أبي بكر بالكراهية، فقد كانوا لا يخالجهم ريب في أنهم أحق بالأمر وأولى به من غيرهم لأنهم أقرب الناس وألصقهم برسول الله (ص) بالإضافة إلى ما تتوفر فيهم من القابليات الفذة والقدرة على تحمل المسؤولية وقيادة الأمة، ولكن

---

(١) شرح النهج ٣/٨.
(٢) شرح النهج ٣/٥.
(٣) شرح النهج.

القوم لم يعنوا بهم وتجاهلوا عامدين مكانتهم من رسول الله (ص) وقابلوهم بمزيد من العنف مما أدى إلى تشعب صدع الأمة وجر الويلات والخطوب لها في جميع مراحل التاريخ.

واعتبر الإمام أمير المؤمنين بيعة أبي بكر اعتداءً صارخاً عليه، فهو يعلم أن محله من الخلافة محل القطب من الرحى ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير ـ على حد تعبيره ـ وما كان يظن أن القوم يزعجون هذا الأمر ويخرجونه عن أهل بيت نبيهم.

فالإمام (ع) سخط من بيعة أبي بكر، وأعلن شجاه وأساه على ضياع حقه، واستبداد القوم بالأمر. من دون أن يعنوا به. وأجمع حزب أبي بكر على إرغام الإمام أمير المؤمنين وقسره على البيعة، فأرسلوا حفنة من الشرطة إلى بيته، فأحاطوا بداره، وأخرجوه منها، وجيء به إلى أبي بكر، فصاح عبيد الشهوات به بعنف: «بايع أبا بكر».

لكن الإمام لم يعبأ بهم، فأجابهم بمنطقه الفياض قائلاً: «أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي (ص)، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً!! ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد (ص) منكم فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة؟ وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً، فانصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلاَّ فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون..».

وبهذا الاحتجاج الرائع وضع الإمام النقاط على الحروف ودلل على أنه أولى وأحق بالأمر منهم لأنه أقرب إلى النبي (ص) وألصق به من غيره، فإن القرب من النبي (ص) هي الجهة التي تمسك بها القوم في التغلب على الأنصار، وهي متوفرة في الإمام أكثر من غيره.

وثار عمر بعد أن أعوزته الحجة في الرد على الإمام فسلك طريق العنف قائلاً له: «إنك لست متروكاً حتى تبايع».

فزجره الإمام قائلاً:

«احلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً».

وكشف الإمام السر في اندفاعات عمر نحو بيعة أبي بكر، فإنه لم يقف هذا الموقف الصارم اتجاه الإمام إلاَّ من أجل أن ترجع إليه الخلافة بعد أبي بكر وثار الإمام، وهتف يزأر قائلاً:

«والله يا عمر، لا أقبل قولك ولا أبايعه».

وخوفاً من غضب الإمام أقبل عليه أبو بكر فخاطبه بناعم القول قائلاً: «إن لم تبايع فلا أكرهك».

وتدخل أبو عبيدة محاولاً إخماد ثورة الإمام وكسب وده فقال له: «يا بن عم أنك حدث السن، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلاَّ أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً واضطلاعاً به، فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعشى ويطل بك بقاء، فأنت بهذا الأمر خليق، وبه حقيق في فضلك ودينك، وعلمك، وفهمك، وسابقتك، ونسبك وصهرك..».

وأثارت هذه المخاتلة كوامن الألم والاستياء في نفس الإمام، فاندفع يخاطب القوم ويذكرهم مآثر أهل البيت (ع) قائلاً: «الله الله يا معشر المهاجرين!.. لا تجروا سلطان محمد في العرب عن داره، وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه. فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق به لأنا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم، ما كان فينا القارىء لكتاب الله، الفقيه في

دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، الدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعداً. .»[1].

أجل فإن القوم قد صرفوا الخلافة عن الإمام أمير المؤمنين برغم قرابته من النبي (ص)، وسابقته في الإسلام ومكانته بين المسلمين وإحاطته بالقضاء، وبصيرته العملاقة بأمور الدين وشؤون الشريعة، ودرايته في الشؤون السياسية والإدارية، وحسن بلائه في سبيل الله، وسيرته التي لم تعرف العوج قط، إضافة إلى خصائصه الأخرى، فمحل الإمام من الخلافة. . محل القطب من الرحى.

---

(١) الإمامة والسياسة ١/١١ ـ ١٣.

سياسته الداخلية:

وتسلم أبو بكر مقاليد الأمور، واقتضت سياسته أن يتبع كافة الوسائل التي من شأنها إضعاف جبهة الإمام والتغلب عليه لأنه يمثل القوى المعارضة لحكومته فقد كانت الأكثرية من الأنصار تميل إلى الإمام، وترغب في أن يتولى زمام الحكم.

ففرض أبو بكر على الإمام حصاراً اقتصادياً حتى لا يقوى على معارضته، وشمل هذا الإجراء جميع أهل البيت، فأسقط عنهم الخمس المفروض لهم بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا إنَّما غَنِمْتُمْ مِن شَيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ، وَمَا أَنْزَلْنَا عَى عَبْدِنَا يومَ الفُرْقَانِ يَومَ الْتَقَى الجَمعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ**﴾. ولم يكن هذا الإجراء مخالفاً للكتاب والسنّة المطهرة. فحسب وإنما كان مخالفاً لمنطق الحياة السليم الذي لا يقر بأي شكل من الأشكال مصادرة حقوق الناس.

وأرسلت بضعة الرسول (ص) وريحانته إلى أبي بكر تسأله أن يدفع إليها ما بقي من خمس خيبر فأبى أن يدفع إليها شيئاً[1] وقد ترك شبح الفقر مخيماً على آل النبي (ص) وحجب عنهم أهم مواردهم الاقتصادية التي فرضها الله لهم.

---

(١) صحيح البخاري ٣/٣٦.

وكانت حجة أبي بكر في مصادرته لتركه النبي (ص) وحرمان ورثته منها ما رواه عن رسول الله (ص) أنه قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»[1].

(أقول) لو كان الحديث صحيحاً ومعتبراً لعرفته فاطمة (ع) وما دخلت ميدان المخاصمة والمحاججة معه، وكيف تطالبه وهي سليلة النبوة بأمرٍ لم يكن مشروعاً لها؟.

ثم لو كان لهذا الحديث أي نصيب من الصحة لعرفه الإمام أمير المؤمنين (ع)، وما كتمه النبي (ص) عنه بدليل أن فاطمة (ع) لم تخرج إلى أبي بكر مطالبة بميراثها من فدك إلّا بعلمٍ منه وإذن منه كذلك.

وضاقت الدنيا على بضعة النبي (ص). وأرهقت إرهاقاً شديداً من الإجراءات الصارمة التي اتخذها أبو بكر ضدها، ويقول الرواة إنها (سلام الله عليها) استقلت غضباً فلاثت خمارها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمه من حفدتها، ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص) حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة ثم أنّت أنةً أجهش لها القوم بالبكاء، وارتج المجلس، فأمهلتهم حتى إذا سكن نشيجهم، وهدأت فورتهم، افتتحت خطابها بحمد الله والثناء عليه وانحدرت في خطابها كالسيل، فلم يسمع أخطب ولا أبلغ منها، وقد تحدثت في خطابها الرائع عن معارف الإسلام وفلسفته، وألقت الأضواء على علل أحكامه، وحكم تشريعاته وتناولت أوضاع الأمم في عهدا لجاهلية، وبعد ظهور الإسلام بعد أن أنقذها الله تبارك وتعالى بنبيه ورسوله (ص)، فدفعها إلى واحات الحضارة وجعلها سادة الأمم والشعوب ـ وعرضت

---

(١) بلاغات النساء (ص ١٩).

سيدة النساء (ع) إلى فضل ابن عمها الإمام علي بن أبي طالب (ع) وجهاده المشرق في سبيل الدين في حين أن المهاجرين من قريش كانوا في رفاهية من العيش وادعين آمنين لم يكن لهم أي ضلع في نصرة القضية الإسلامية وإنما كانوا ـ على حد تعبيرها ـ ينكصون عند النزال، ويفرون من القتال، كما كانوا يتربصون بأهل البيت الدوائر، ويتوقعون بهم نزول الأحداث، وأعربت في خطابها على أسفها الشديد على ما مُني به المسلمون من الزيغ والانحراف، والاستجابة لدواع الهوى والغرور، وتنبأت عما سيواجهونه من الأحداث الخطيرة والكوارث المؤلمة نتيجة لما ارتكبوه من الأخطاء والانحراف كما أراده الله منهم من التمسك بالعترة، وبعدما أدلت بهذه النقاط المشرقة عرضت إلى حرمانها من إرث أبيها رسول الله (ص). فقالت: «وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لي من أبي، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون».

أفلا تعلمون... بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية ـ أني ابنته ويهاً أيها المسلمون أأغلب على تراث أبي؟. يا بن أبي قحافة؟!! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟.

لقد جئت شيئاً فرياً أفعلى عمد تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ﴾ وقال فيما اقتصى من خبر يحيى بن زكريا إذ يقول: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدنُكَ وَلِّياً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلَهُ رَبِّ رَضِياً** ﴾ وقال: ﴿ **وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ وقال: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أوْلَادِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ** ﴾ وقال: ﴿ **إن تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلوَالِدَينِ وَالأَقْرَبينِ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾.

وزعمت أن لا حظوة لي، ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي.

أم تقولون: أهل ملتين لا يتوارثـان؟ أو لست أنا وأبي من أهـل ملة واحدة؟.

أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟.

ثم وجهت خطابها إلى أبي بكر فقالت له:

«فدونكها مخطـومة مـرحولـة تلقاك يـوم حشرك فنعم الحكم الله، والـزعيم محمد والمـوعد القيـامة، وعنـد الساعـة يخسر المبـطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون «ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم».

بعد ذلك تـوجهت نحو مجمـوعة من المسلمين تستنهض هممهم، وتوقظ عزائمهم للمطالبة بحقها، والثأر لها قائلة:

«يا معشر الفتية وأعضاء الملّة، وحضنة الإسلام ما هذه الغميزة في حقي، وألسنـة عن ظلامتي؟!! أمـا كـان رسـول الله أبي يقـول: «المـرء يحفظ في ولده» سرعـان ما أحـدثتم وعجلان ذا أهـالة، ولكم طـاقة بمـا أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون: مات محمـد فخطب جليـل استـوسع وهيـه، واستنهر فتقـه، وانفتق رتقـه، وأظلمت الأرض لغيبتـه، وكسفت الشمس والقمـر، وانتثـرت النجـوم لمصيبتـه، وأكـدت الآمـال وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأديلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى التي لا مثلها نـازلة، ولا بـائقة عـاجلة، أعلى بهـا كتاب الله جـلَّ ثناؤه في ممسـاكم ومصبحكم هتافـاً وصـراخـاً، وتـلاوة وألحانـاً ولقبله مـا حلت بـأنبيـاء الله ورسله، حكم فصـل وقضـاء حتم، وما محمد إلَّا رسـول قد خلت من قبله الـرسل أفـإن مات أو قتـل انقلبتم على أعقـابكم ومن ينقلب عـلى عقـبيـه فـلن يضـر الله شـيئـاً وسيجزي الله الشاكرين».

ثم حفزت الأنصار، وذكرتهم بجهادهم وكفاحهم المشرق في نصرة الإسلام، وطالبتهم بالانتفاضة والثورة على الحكم القائم قائلة:

«أيها بني قيلة أأهضم تراث أبي وأنتم بمرىء ومسمع ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنار أهل البيت ـ قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم وكافحتم البهم، فلا نبرح وتبرحون نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرَّ حلب الأيام وخضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج واستوسق نظام الدين فإن جرتم[1] بعد البيان وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقومٍ انكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة) أتخشونهم؟ «والله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين».

ولما رأت وهن الأنصار، وتخاذلهم وعدم استجابتهم لنداء الحق، وجهت لهم أعنف اللوم، وأشد العتب قائلة:

«ألَّا وقد قلت: ما قلت: على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، وبثة الصدر، ونفثة الغيظ، وتقدمة الحجة فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقية الخف، باقية العار، موسومة بغضب الله، وشنار الأبد، موصومة بـ «نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم موصدة» فبعين الله

---

(١) جرتم: أي ملتم.

ما تفعلون «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». وأنا ابنة نذيركم بين يدي عذاب شديد «فاعملوا إنا عاملون، وانظروا إنا منتظرون»(١).

وأمام الجموع المحتشدة في المسجد ألقمت سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع) أبو بكر حجراً، فلم يجرأ على الكلام، فقد كانت حجتها على إرثها من أبيها وثيقة للغاية، فقد كان استدلالها بآيات محكمات لا ترد، ولا تكابر.

وأوشك الحق أن يرجع إلى نصابه ومعدنه، إلَّا أن سياسة العصا الغليظة هي السائدة، فلو لم تكن تلك العصا لاستجاب الناس لنداء بضعة الرسول فاطمة (ع). وطافت الهموم والأحزان ببضعة النبي (ص) ووديعته فقد احتل الأسى قلبها الرقيق المعذب وغشيتها سحب قاتمة من الكدر واللوعة على فقد أبيها العظيم، فكانت تطوف حول قبره الشريف، وهي حيرى ذاهلة اللب، منهدة الكيان، فتلقي بنفسها عليه، وتأخذ حفنة من ترابه الطاهر فتضعة على عينيها ووجهها وتطيل في شمهِ، وتقبيله، فتجد في نفسها راحة، وهي تبكي أمرّ البكاء واشجاه وتقول بصوت حزين النبرات:

ماذا على من شمَّ تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صُبت علي مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا
قل للمغيب تحت أطباق الثرى ... إن كنت تسمع صرختي وندائيا
قد كنت ذات حمى بظل محمد ... لا اختشي ضيماً وكان جماليا
فاليوم أخضع للذليل وأتقي ... ضيمي وادفع ظالمي بردائيا
فإذا بكت قمرية في ليلها ... شجنا على غصن بكيت صباحيا
فلا جعلن الحزن بعدك مؤنسي ... ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا

(١) أعلام النساء ١٣٠٨/٣، بلاغات النساء (ص ١٣ ـ ١٩).

يقول المؤرخون إن أنس بن مالك استأذن عليها ليعزيها بمصابها الأليم، وكان ممن وسد رسول الله (ص) في مثواه الأخير فقالت له:

«أنس بن مالك؟»

«نعم يا بنت رسول الله».

فقالت له وهي تلفظ قطعاً من قلبها المذاب:

«كيف طابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله (ص)».

وقطع أنس كلامه، وطاش لبه، وخرج وهو يذرف الدموع قد غرق في عالم من الأسى والشجون.

وطالبت بضعة النبي (ص) الإمام أمير المؤمنين أن يريها القميص الذي غسل فيه أباها رسول الله (ص) فجاء به إليها فأخذته بلهفة وهي توسعه تقبيلاً وشماً. لأن فيه رائحة أبيها العظيم.

وخلدت سيدة النساء (ع) إلى البكاء في وضح النهار وفي غلس الليل وقد ثقل على القوم فيما يقول المؤرخون، بكاؤها فشكوها إلى الإمام أمير المؤمنين وطلبوا منه أن تجعل لبكائها وقتاً خاصاً لأنهم لا يهجعون فكلمها الإمام (ع) فأجابته إلى ذلك فكانت تخرج نهاراً خارج المدينة ومعها الحسن والحسين (ع) فتجلس تحت شجرة الأراك، فتستظل تحتها، وتبكي أباها طيلة النهار فإذا أوشكت الشمس أن تغرب تقدمها الحسنان مع أبيهما ورجعوا إلى دارهم.

وعمد الحاقدون على الإسلام وعلى رسوله العظيم (ص) إلىٰ تلك الشجرة فقطعوها فكانت تبكي في حر الشمس، فقام أمير المؤمنين (ع) فبنى لها بيتاً أسماه «بيت الأحزان» ظل رمزاً لأساها على مر العصور، ونسب إلى قائم آل محمد (ص) أنه قال فيه:

أم تراني اتخذت لا وعلاها بعد بيت الأحزان بيت سرور

وقد بقيت بضعة الرسول تبكي أباها بمرارة حتى غادرت هذه الدنيا الزائفة فالقوم اقتلعوا قول النبي في حق فاطمة من آذانهم كي لا يوخزهم ضمير أو يجرحهم عهد. . غادرت هذه الدنيا غير آسفة عليها لتلتحق بأبيها العظيم عند مليك مقتدر وهي تحمل في طيات قلبها أكثر من شكوى وعلى أضلاعها أكثر من مصاب، وفي عينيها أكثر من جراح، وكان ذلك بعد وفاة أبيها العظيم على أكثر الروايات بستة أشهر.

فبضعة الرسول (ص) لاقت ما لا قت من المحن والآلام من هذه الأمة التي انتشلها أبوها من مركز المهانة والإذلال إلى مركز الإجلال والاحترام.

(ابن قتيبة) في الإمامة والسياسة قال: وإن أبا بكر تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي (ع) فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم في دار علي (ع) فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال والذي نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقنها[1] على من فيها فقيل له يا أبا حفص إن فيها فاطمة (ع) فقال (وإن. .) إلى أن قال: فوقفت فاطمة (ع) على بابها فقالت لا عهد لي بقومٍ حضروا أسوء محضر منكم تركتم رسول الله (ص) جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم لم تستأمرونا ولم تردّوا لنا حقاً فأتى عمر أبا بكر فقال له ألاّ نأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة فقال أبو بكر لقنفذ وهو مولى له اذهب فادع لي علياً (ع) قال فذهب إلى علي فقال ما حاجتك فقال يدعوك خليفة رسول الله (ص) فقال علي (ع) لسريع ما كذبتم على رسول الله (ص) فرجع فأبلغ الرسالة قال فبكى أبو بكر طويلاً فقال عمر الثانية أن لا تهمل هذاالمتخلف عنك

(١) ومما يؤيد أنه قال عمر هذا الحديث (ولأحرقنها على من فيها) ما ذكره المتقي في كنز العمال. جـ ١ ص ١٣٩.

بالبيعة فقال أبو بكر لقنفذ عد إليه فقل له أميرا لمؤمنين يدعوك لتبايع فجاءه قنفذ فأدى ما أمر به فرفع علي (ع) صوته فقال سبحان الله لقد ادّعى ما ليس له فرجع قنفذ فأبلغ الرسالة فبكى أبو بكر طويلاً . .

(ابن جرير) في تاريخه ج ١ ص ٦١٩ روى بسنده عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أنه دخل على أبي بكر في مرضه الذي توفي فيه فأصابه مهتماً (إلى أن قال) قال أبو بكر أجل إني لا آسي على شيء من الدنيا إلاّ على ثلاث فعلتهن وددت أني تركتهن (إلى أن قال) فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة (عليها السلام) عن شيء وإن كانوا قد غلقوه على الحرب (الحديث).

وعلى أي حال فإن أمير المؤمنين حينما وصله نبأ وفاة الزهراء (ع) جاشت به الأحزان، وطفق يقول: «بمن العزاء يا بنت محمد؟ كنت بك أتعزى ففيم العزاء من بعدك؟ .

وخف مسرعاً إلى الدار، وهو يذرف الدموع، ولما ألقى نظرة على جثمان حبيبة رسول رب العالمين (ص) أخذ ينشد:

لكل اجتماع من خليلين فرقةً وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمـ ـد دليل على أن لا يدوم خليل

إن السياسة التي انتهجها أبو بكر مع أهل البيت (ع) كانت في منتهى القسوة، فقد حرمهم من أبسط حقوقهم، وقد ترك شبح الفقر مخيماً عليهم.

ولم تطل سياسته الصارمة أهل البيت (ع) فحسب وإنما طالت أيضاً أصحاب السابقة في الإسلام كسلمان، وأبي ذر، والمقداد، وعمار وغيرهم كما طالت مجموعة كبيرة من الأنصار.

وفي عهد أبي بكر قتل خالد مالك بن نويرة وأصحابه وانزوى في أم تميم أمرأة مالك ليلة مقتله، فأمر عمر بن الخطاب إقامة الحد عليه، لكن أبا بكر كان يعتذر عنه مدعياً أنه اجتهد فأخطأ!، وما الخطأ على المجتهدين بعزيز، وهذا من أوليات أبي بكر إذ يجعل الاجتهاد عذراً للمخالفة الصريحة للقانون الإسلامي.

ذكر ابن الأثير(١): «سار خالد بعد أن فرغ من فزاره، وأسد، وطيء. يريد البطاح وبها مالك بن نويرة قد تردد عليه أمره. وتخلفت الأنصار عن خالد، وقالوا:

ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من بزاخة وأسبرنا بلاد القوم أن تقيم حتى يكتب إلينا، فقال خالد:

أنا الأمير. هذا مالك بن نويرة بحيالنا، فأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين...

وكان قد أوصاهم أبو بكر(١) أن يوذنوا إذا نزلوا منزلاً. فإذا أذن القوم، فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فقاتلوهم.

وإن أجابوا إلى داعية الإسلام فسألوهم من الزكاة فإن أقروا فأقبلوا منهم. وإن أبوا فقاتلوهم، فجاءت خالداً الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة ابن يربوع، فاختلفت السرية فيهم.

وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنهم قد أذنوا وصلوا. فلما اختلفوا أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء فأمر خالد

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(١) فيما يتصل بموقفهم من الذين امتنعوا عن إداء الزكاة بالسير إليهم إلاّ في قضية مالك بن نويرة التي لم يثبت للخليفة آنذاك امتناعه.

منـاديـاً فنـادى ادفئـوا أسـراءكم. . وهي في لغـة كنـانـة القتـل. . . فقتلوهم. . . فتزوج خالد أم تميم.

فقـال عمر لأبي بكـر: إن سيف خالـد فيـه رهق، وأكثـر عليـه في ذلك، فقال: هيه يا عمر!! تـأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد.

فدخل خالد على أبي بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه، فعذره وتجاوز عنه، وعنفه في التزويج.

ولاته وعماله:

يقول المؤرخون: إن جهـاز الحكم الإداري في عهد أبي بكـر كان خاضعاً لمشيئة عمر بن الخطاب، فهو المخطط لسياسة الدولة، والواضع لبرامجها الداخلية والخارجية قد وثق به أبو بكر، وأسنـد إليه جميـع مهام حكومته، فلم يعقد أي عقد أو يقطع أي عهد إلاَّ عـن رأيـه، ومشـورته، كما كان أمر تعيين العمال والولاة يتم بقرارٍ منه.

وقد كانت المناصب الحساسـة من مناصب الجيش لا تمنـح لأحد إلاَّ بعـد إحرازه على وثيقـة تزكيـة من عمـر، فمن كـانت لـه أدنى ميـول معـاكسة للنهـج العمري، فـإنه لا يقبـل في أي عمل من دوائـر الدولـة، ويقول المؤرخون: إن أبـا بكر عـزل خالـد بن سعيد بن العـاص عن قيادة الجيش الذي بعثه لفتح الشام، ولم يكن هنـاك أي موجب لعـزلهِ إلاَّ لأن عمر نبهه على ميولهِ لعلي وبين له مواقفه يوم السقيفة التي كانت منـاهضة لأبي بكر(١).

ولم يعهد أبو بكـر بأي عمـل أو منصب لأحد من الهـاشميين، وقد

(١) شرح النهج ١/ ١٣٥.

كشف عمر الغطاء عن سبب حرمانهم في حواره مع ابن عباس من أنه يخشى إذا مات وأحد الهاشميين والياً على قطر من الأقطار الإسلامية إن يحدث في شأن الخلافة ما لا يحب[1].

لقد كان عمر لا يعين شخصاً في المناصب الحساسة إلَّا على أساس إيمانه المطلق بنهج السقيفة.. هذا النهج الذي أنكر إنسانية الإنسان، وطعن الفضائل والمكارم طعنةً نجلاء.. وذلك بسبب ابتزازه الحكم الإلّهي وجعله غاية تستباح في سبيلها كافة الغايات والحرمات. فمعظم عمال وولاة أبي بكر كانوا من الأسرة الأموية وهم:

١ ـ أبو سفيان:

عينه عاملاً على ما بين آخر حد الحجاز وآخر حد من نجران[2].

٢ ـ يزيد بن أبي سفيان:

عينه والياً على الشام[3] ويقول المؤرخون: إنه خرج مودعاً له إلى خارج يثرب.

٣ ـ عتاب بن أسيد:

وعينه والياً على مكة[4].

٤ ـ عثمان بن أبي العاص:

جعله والياً على الطائف[5] ومنذ ذلك اليوم ترسخ نفوذ بني أمية.

---

(١) مروج الذهب المطبوع على هامش ابن الأثير ١٣٥/٥.

(٢) فنون البلدان للبلاذري ص ١٠٣.

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣٨٩/٣.

(٤) الإصابة ٤٤٤/٣.

(٥) تاريخ ابن الأثير ٣٨٩/٣.

فالهاشميون أصحاب القدرات الهائلة والأخلاق الرفيعة يحرمون من وظائف الدولة بينما يفوز بها العنصر الأموي الذي ناهض النبي (ص) وناجزه في جميع المواقف.

يقول العلائلي: «فلم يفز بنو تيم بفوز أبي بكر فاز الأمويون وحدهم، لذلك صبغوا الدولة بصبغتهم، وآثروا في سياستها، وهم بعيدون عن الحكم كما يحدثنا المقريزي في رسالته «النزاع والتخاصم» »[1].

يقول المؤرخون: إن القابليات الدبلوماسية والإحاطة بشؤون الإدارة والحكم والمعرفة بشؤون الدين كانت متوفرة عند الكثيرين من المهاجرين والأنصار من صحابةالنبي (ص) فكان الأجدر تعيين هؤلاء في مناصب الدولة، وإبعاد الأسرة الأموية عنها لوقاية المجتمع الإسلامي من مكائدها وشرورها.

سياسته المالية:

وقبل أن نتناول السياسة المالية التي نهجها أبو بكر نود أن نعرض إلى السياسة المالية التي وضع برامجها الإسلام، فقد استهدفت وئد الفقر والحرمان وتطوير الحياة الاقتصادية بحيث تتحقق الفرص المتكافئة لعامة المواطنين، بحيث لا يبقى أي ظل للبؤس والحاجة، ويعيش الجميع حياة يسودها الرخاء والرفاه.

فالإسلام وضع نظاماً للحكام يلزمهم به بالاحتياط في أموال الدولة، فلم يجز لهم بأي حال أن يصطفوا منها لأنفسهم شيئاً كما لم

---

(١) الإمام الحسين ص ١٩١.

يجز لهم أن ينفقوا أي شيء منها لتوطيد حكمهم ودعم سلطانهم، وكان الطابع العام لهذه السياسة المساواة بين المسلمين في العطاء، فليس لرئيس الدولة أن يميز قوماً على آخرين فإن ذلك يخلق الطبقية ويوجد الأزمات الحادة في الاقتصاد العام ويعرض المجتمع إلى كثير من الويلات والخطوب، ويقول المؤرخون إن أبا بكر لم يساو في العطاء بين المسلمين، فقد وهب لأبي سفيان ما كان في يده من أموال الصدقة كسباً لعواطفه التي تشترى وتباع بالأموال[1] كما قام بتوزيع شطر من الأموال على المهاجرين والأنصار فبعث إلى أمرأة من بني عدي بقسم من المال مع زيد بن ثابت فأنكرت ذلك وقالت:

ـ ما هذا؟

ـ قسم قسمه أبو بكر للنساء.

فردت المرأة قائلة: «أترشونني عن ديني، والله لا أقبل منه شيئاً؟!! وردت المال عليه[2].

شيطانه الذي كان يعتريه:

(ابن سعد) في طبقاته جـ ٣ القسم ١ ص ١٣٩ روى بسنده عن الحسن قال لما بويع أبو بكر قام خطيباً (إلى أن قال) «أما بعد فإني وليت هذا الأمر وأنا له كاره (إلى أن قال) وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني فإذا رأيتموني أستقمت فاتبعوني وإن رأيتموني زغت فقوموني واعلموا أن لي شيطاناً يعتريني فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني.

(١) تاريخ الطبري.

(٢) شرح النهج ١٣٣/١.

كم هو الفرق بين رسول الله (ص) وبين أبي بكر الذي جلس مجلسه فرسول الله كان يعصم بالوحي وكان معه ملك بينما كان مع أبي بكر شيطان يعتريه باستمرار، فإذا اعتراه وجب على المسلمين أن يتجنبوه كما نبه عليه بقوله فاجتنبوني.

ويقول بعض المؤرخين: إن الشيطان كيف تسلط على أبي بكر فجعل يعتريه وهو لا يرضى بذلك طبعاً (وقد قال تعالى): ﴿ **إن عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إلاَّ مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ وأنَّ جَهَنَّمَ لموعِدُهُم أجْمَعِينَ** ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿ **إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّونَهُ وَالّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾[2]. (ثم ما السبب الوحيد) الذي دعى الشيطان أن يعتري أبا بكر (فهل كان السبب) هو ما أشار إليه في القرآن الكريم ﴿ **وَمَنْ يَعْشَى عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾[3]. وقال: ﴿ **وَمن يكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً** ﴾[4]. أو السبب أرقى من ذلك وأعظم وهو ما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ **إنَّا أرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تؤُزُّهُمْ أزاً** ﴾[5]. وقال أيضاً: ﴿ **إنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أولِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ** ﴾[6].

---

(١) سورة الحجر.
(٢) سورة النحل.
(٣) سورة الزخرف.
(٤) سورة النساء.
(٥) سورة مريم.
(٦) سورة الأعراف.

ثم ما غاية الشيطان من اعترائه لأبي بكر أفهل كان غايته أن يوحي إليه وقد قال تعالى: ﴿ يُوحِي بَعضُهُم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غُرُوراً ﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿ إنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أولِيَائِهم ﴾ أو الغاية غير ذلك.

ثم هل المراد من الشيطان الذي كان يعتري أبا بكر هو شيطان من شياطين الجن فإن الشياطين على قسمين كما صرح به القرآن المجيد حيث قال: ﴿ شَيَاطِينَ الإنسِ والجِنَّ ﴾ في سورة الأنعام أو هو شيطان من شياطين الإنس وقد يكون هو الثاني فكان مقصود أبي بكر أن هناك رجلاً من الأنس يخلوا به خلواته ويحرضه على شهواته ويصده عن طريق الحق والهدى ويلهمه الباطل ويرشده إلى الضلال ويجره إلى النار كما هو شأن كل شيطان إنسي أو جنّي ويحتمل أيضاً أن يكون المراد هو الأول.

ولم يطل سلطان أبا بكر فقد اقتحمته الأمراض بعد مضي ما يزيد على سنتين من حكمه وقد صمم على تقليد زميله عمر بن الخطاب شؤون الخلافة إلَّا أن ذلك لاقى معارضة الكثيرين من الصحابة فقد انبرى إليه طلحة قائلاً: «ماذا تقول لربك: وقد وليت علينا فظاً غليظاً؟ تفرق منه النفوس وتنفض منه القلوب(٢).

وسكت أبو بكر فاندفع طلحة يوالي إنكاره عليه قائلاً:

«يا خليفة رسول الله، إنا كنا لا نحتمل شراسته، وأنت حي تأخذ على يديه، فكيف حالنا معه، وأنت ميت وهو الخليفة...»(٣). ورفع

(١) سورة الأنعام.
(٢) شرح النهج ١/١٣٣.
(٣) شرح النهج ١/٥٥.

العديد من المهاجرين والأنصار مذكرة لأبي بكر أعلنوا فيها كراهيتهم لخلافة عمر جاء في جانب منها :

«تراك استخلفت علينا عمر، وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا، وأنت بين أظهرنا، فكيف إذا وليت عنا، وأنت لاق الله عزَّ وجلَّ فسائلك، فما أنت قائل؟ .

فرد عليهم :

«لئن سألني الله لأقولن استخلفت عليهم خيرهم في نفسي . . »[1].

وبالرغم من المعارضة الشديدة التي أبدتها الأكثرية الساحقة من الأمة لموضوع استخلاف عمر استجاب أبو بكر لعواطفه فعينه خلفاً له .

وكان عمر ملازماً لأبي بكر في مرضه لا يفارقه خوفاً من التأثير عليه . وطلب أبو بكر من عثمان بن عفان أن يكتب للناس عهده في عمر، وكتب عثمان ما أملاه عليه، وهذا نصه :

«هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة، آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها . وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم فذلك ظني به، ورجائي فيه، وإن بدل وغير فالخير أردت ولا أعلم الغيب «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . . » .

ووقع أبو بكر الكتاب فتناوله عمر، وانطلق به يهرول إلى الجامع ليقرأه على الناس فانبرى إليه رجل وقد أنكر عليه ما هو فيه قائلاً : «ما في الكتاب يا أبا حفص؟» .

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٩ .

فنفىٰ عمر علمه بما فيه إلاّ أنه أكد التزامه بما جاء فيه قائلاً: «لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع..».

فرمقه الرجل، وقد علم واقعه قائلاً:

ولكني والله أدري ما فيه، أمرته عام أول، وأمرك العام..»[1].

وانبرى عمر إلى الجامع فقرأ الكتاب على الناس، وبذلك تمّ له الأمر بسهولة من دون منازع، وفيما يقول المؤرخون: إن ذلك ترك أعمق الأسى في نفس الإمام أمير المؤمنين (ع)، فراح بعد سنين يدلي بما انطوت عليه نفسه الكريمة من الشجون يقول (ع) في خطبته الشقشقية «فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا أرى تراثي نهباً، حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها فلان - يعني عمر - بعده، ثم تمثل بقول الأعمش:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجباً!! بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشدَّ ما تشطر أضرعيها..»[2].

وعلى أي حال فقد تناهبت الأمراض جسم أبي بكر، ودفعته إلى النهاية المحتومة، التي ينتهي إليها كل إنسان، وقد راح يبدي ندمه وأساه على فعلة تجاه بضعة رسول الله (ص) قائلاً: «وددت أني لم أكشف بيت فاطمة، ولو أنهم أغلقوه على الحرب». وثقل حاله فدخلت عليه ابنته عائشة تعوده فلما رأته يعالج سكرات الموت أخذت تتمثل بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

---

(١) الإمامة والسياسة ١/٣٠.

(٢) مروج الذهب ٣/١٩٥.

فغضب أبو بكر وقال لها: ولكن قولي: «وجاءت سكرات الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد»[1].

ولم يلبث قليلاً حتى وافاه الأجل المحتوم، وانبرى صاحبه عمر إلى تجهيزه فغسله، وصلّى عليه وواراه الثرى.

وهكذا انتهت خلافة أبا بكر القصيرة الأمد، وقد حفلت بأحداث رهيبة، وكان من أخطرها فيما يقول المحققون معاملة العترة الطاهرة كأشخاص عاديين قد جرد عنها إطار التقديس والتعظيم الذي أضفاه البنبي (ص) عليها.

لقد أدى اقتحام حكومة أبي بكر لحرمة أهل البيت (ع) إلى إمعان الحكومات التي تعاقبت على زعامة التجربة إلى ظلمهم واستعمال كافة وسائل البطش معهم، ولعل أقسى ما عانوه من الكوارث هي فاجعة كربلاء التي لم ترع فيها أي حق لرسول الله (ص) في عترته وأبنائه.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣/١٩٠.

« حكومة عمر »

ووصل عمر إلى سدة الحكم بسهولة دون جهدٍ أو عناء وقد أحكم قبضته على البلاد، فساس الأمة بشدة وعنف، فكان يخشاه الجميع حتى كبار الصحابة، فإن درته حسبما يقول المؤرخون ـ كانت أهيب من سيف الحجاج حتى أن ابن عباس مع ما له من الشخصية الرفيعة بين الناس لم يستطع أن يجاهر برأيه في حلية المتعة إلاَّ بعد وفاته فالكل كان يخشاه حتى عياله وأبناءه.

لقد فرض عمر سلطانه بالقوة والعنف، حتى بات الجميع يخافون بطشه وبلغ من عظيم خوفهم أن امرأة جاءت تسأله عن أمر، وكانت حاملاً ولشدة خوفها منه أجهضت حملها[1].

وشدة عمر تعرض إليها عثمان حينما اشتدت عليه نقمة الجماهير قائلاً: «لقد وطئكم ابن الخطاب برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه فخفتموه ورضيتم به..».

وقد وصف الإمام أمير المؤمنين (ع) حال الناس ومدى محنتهم في ظل سياسة عمر قائلاً: «فصيرها.. يعني أبا بكر في توليته لعمر ـ في حوزة خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها والاعتذار

(١) سرح النهج ١/٥٥.

منهـا، فصـاحبهـا كـراكب الصعبـة إن اشنق لهـا خـرم، وإن أسلس لهـا تقحم، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلون واعتراض. . . »[1].

وتجافت هذه السياسة عن سيرة الرسول (ص) وسياسته، فقد سـار بين الناس بالرفق واللين، وساسهم بـالرأفـة والرحمـة، وكان كـالأب لهم وكان يشجب جميع مظاهر الرعب التي تبدو من بعض الناس تجاهـه فقد جاءه رجل، وقد أخذته الرهبة منه، فنهـره (ص) وقال لـه: «إنما أنـا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

وسار (ص) بين أصحابه سيرة الصديق مع صـديقه والأخ مـع أخيه من دون أن يشعـرهم بأن له مزية أو تفـوق عليهم، وقـد مـدح الله تبـارك وتعالى أخلاقه الرفيعة بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

وفرض عمر الإقامة الجبرية على الصحـابة، ولم يغـادر أحداً منهم المدينة إلاَّ بإذنه، وقد خالف بهـذا الإجراء مـا أثر عن الإسـلام في منحه الحريات العامة للناس جميعاً.

سياسته المالية:

جميع المؤرخين والمحققين الإسلاميين ذكروا أن عمر لم يساو بين المسلمين في العـطاء وإنمـا ميـز بعضهم على بعض، وكـان يبـرر ذلـك بقوله: لا أجعـل من قاتـل رسول الله (ص) كمن قـاتل معـه» وقد فـرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بـدراً خمسة آلاف خمسـة آلاف، وفرض لمن كـان إسلامـه كإسـلام أهل بـدر ولم يشهد بـدراً أربعـة آلاف أربعـة آلاف، وفرض لأزواج النبي (ص) اثني عشر ألفاً إلاَّ صفية وجـويريـة فقد فـرض لهمـا ستـة آلاف فـأبتـا ان يقبـلا بـذلـك، وفـرض للعبـاس عم

(١) حياة الإمام الحسن ١ / ١٧٥.

النبي (ص) اثني عشر ألفاً، وفرض لإسامة بن زيد أربعة آلاف، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف فأنكر عليه ذلك وقال:

يا أبت لم زدته علي ألفاً؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي، وكان له ما لم يكن لي..».

فقال عمر: إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله (ص) من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك..»[1].

إن سياسة التفضيل في الأمة خلقها أبو بكر، ولما أفضت الخلافة إلى عمر وسعها بشكل أعمق حيث فضل قريش على باقي العرب، وفضل العرب على العجم، والصريح على المولى[2] وقد أدت هذه السياسة إلى إيجاد الطبقية بين المسلمين، كما استدعت إلى تصنيف الناس بحسب قبائلهم وأصولهم فنشط النسابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل بحسب أصولها[3] مما أدى إلى حنق الموالي على العرب، وكراهيتهم لهم، والتفتيش عن مثالبهم، وظهور النعرات الشعوبية والقومية في حين أن الإسلام قد أمات هذه الظاهرة وجعل رابطة الدين أقوىٰ من رابطة النسب، وألزم الحاكم بالمساواة والعدالة بين الناس على اختلاف قومياتهم وأديانهم حتى لا يحدث أي تفاوت بالمجتمع.

وقد تعرضت هذه السياسة إلى نقد العديد من المحققين، وفيما يلي بعضهم.

---

(١) الخراج ص ٢٤٢.
(٢) شرح النهج ـ/١١١.
(٣) العصبية القبلية ص ١٩٠.

١ ـ **العلائلـي**:

يقول الشيخ العـلائلي: «هذا التنـظيم المالي أوجـد تمايـزاً كبيراً، وأقام المجتمع العربي على قاعـدة الطبقـات بعد أن كـانوا سـواء في نظر القانون (الشريعة) فقد أوجد أرستقراطية وشعباً وعامة[١].

٢ ـ **الدكتور عبد الله سلام**:

يقـول الدكتـور عبـد الله سـلام لست أدري كيف اتخـذ عمـر هـذا الإجراء؟ ولماذا اتخذه؟ إنه إجراء أوجد تفاوتاً اجتماعياً واقتصادياً، إجراء. أوجد بذور التنافس والتفاضل بين المسلمين[٢].

٣ ـ **الدكتور محمد مصطفى**:

وممن أنكـر هذه السيـاسة الـدكتور محمـد مصطفى هـدارة يقول: «وفـرض العـطاء على هـذه الصـورة قـد أثـر تـأثيـراً خـطيـراً في الحيـاة الاقتصادية للجماعة الإسلامية إذ خلف شيئاً فشيئاً طبقـة أرستقراطيـة غنية يـأتيها رزقهـا رغداً دون أن تنهض بعمـل ما مقـابل مـا يـدخـل إليهـا من أمـوال. ذلـك أن فـرض العـطاء كـان يـرتكـز على نـاحيتين القـرابـة من رسول الله، والسابقة في الإسلام، ولهـذه القرابـة ولتلك السابقـة درجات ودرجات، وبهذا لم يرع عمر فرض العطاء ذلك المقابـل الذي لا بـدّ أن تأخذه الدولة في صورة عمل وجهاد»[٣].

فالنبي (ص) لم يؤثر من أموال الدولـة، أي أحد من أصحـابه، من الذين سبقوا للإيمان وتعرضوا إلى أنواع التعذيب، أمثـال عمار، وبـلال، وأبي ذر، كما لم يؤثر بأي شيء ابن عمه علي بن أبي طـالب، وهو بـطل

(١) الإمام الحسين ص ٢٣٢.

(٢) الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية ص ٣٥١.

(٣) اتجاهات الشعر العربي ص ١٠٨.

الإسلام، والمنافح عنه في جميع المواقف والمشاهد، وإنما جعل أجر المجاهدين وثوابهم عند الله في الدار الآخرة.

لقد كانت سياسة الرسول (ص) المالية تقضي ببسط العطاء على الجميع، والمساواة فيما بينهم من أجل تماسك المجتمع ووحدته.

وقد ذكر المؤرخون: إن عمر حينما رأى انتشار الثراء الفاحش عند البعض ندم أشد الندم وراح يقول: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء».

ولاته وعماله:

لقد حذا عمر حذو سلفه في إبعاد الأسرة الهاشمية عن جهاز الدولة، فلم يمنحهم أي منصب، وإنما عهد إلى من ولّاهم أبو بكر، فأقرهم في مناصبهم.

وقد ذكر المؤرخون: إن عمر كان يراقب عماله وولاته، فكان لا يولي عاملاً إلّا أحصى عليه ماله، وإذا عزله أحصاه عليه حين العزل فإن وجد عنده فرقاً قاسمه ذلك الفرق فترك له شطراً، والشطر الآخر ضمه إلى بيت المال[1]. واستعمل أبا هريرة الدوسي والياً على البحرين، وقد بلغه عنه أنه استأثر بأموال المسلمين فدعاه إليه، ولما حضر عنده زجره وقال له:

«علمت أني استعملتك على البحرين، وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف وستمائة دينار..».

واعتذر أبو هريرة فقال له: «كانت لنا أفراس تناتجت، وعطايا

(١) الفتنة الكبرى ١/ ٢٠.

تلاحقت» ولم يعن به عمر وإنما زجره وصاح به .

«قد حسبت لك رزقك، ومؤنتك، وهذا فضل فاده» .

وراوغ أبو هريرة فقال له :

ليس لك ذلك» .

«بلى والله وأوجع ظهرك» .

وغضب عمر فقام إليه، وعلاه بدرته حتى أدماه، ولم يجد أبو هريرة بُداً من إحضار الأموال التي انتهبها بغير حق فقال له :

«ائت بها، واحتسبها عند الله» .

فرد عليه منطقه الهزيل وقال له :

«ذلك لو أخذتها من حلال، وأديتها طائعاً، أجئت بها من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك لا لله، ولا للمسلمين ما رجعت بك أميمة[1] إلاَّ لرعية الحمر[2] وشاطره جميع أمواله، وقد شاطر من عماله ما يلي :

١ ـ سمرة بن جندب .
٢ ـ عاصم بن قيس .
٣ ـ مجاشع بن مسعود .
٤ ـ جزء بن معاوية .
٥ ـ الحجاج بن عتيك .
٦ ـ بشير بن المحتفز .
٧ ـ أبو مريم بن محرش .
٨ ـ نافع بن الحرث

---

(١) أميمة أم أبي هر.
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ ،

هؤلاء بعض عماله وولاته الذين اقترفوا جريمة السرقة، وخانوا بيت مال المسلمين، ولكن الحكم بمشاطرة أموالهم لا يلائم السنّة، فالواجب يقضي أن يقدمهم للقضاء، فإن ثبتت خيانتهم فلا بدّ من إقامة الحد عليهم، ومصادرة الأموال التي اختلسوها، ولا وجه لمشاطرتهم، كما يجب عزلهم عن وظائفهم وسلب الثقة منهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عمر استعمل الشدة والصرامة مع كافة ولاته وعمالهِ إلاّ معاوية بن أبي سفيان علماً أنه قد خان بيت المال، وبالغ في السرف والبذخ، فلم يفتح معه أي لون من ألوان التحقيق، بل كان يشيد به، ويدافع عنه، ويعتبره من الدهاة.

وذكر المؤرخون: إن حزن الإمام أمير المؤمنين (ع) كان عميقاً على ضياع حقه وسلب تراثه، فقد جهد القوم على الغض من شأنه، ومعاملته كشخص عادي غير حافلين بطاقاته الهائلة ومواقفه الجبارة في خدمة الإسلام، ومكانته من النبي (ص).

وأجمع المؤرخون على أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا يحسون بضرورة الرجوع للإمام واعتباره المفزع والمرجع لحل أي مشكلة يستعصي عليهم حلها بالرغم من تحفظاتهم من هذا الموضوع.

ذات يوم نزلت بعمر نازلة فحار في التخلص منها وعرض على أصحابه ذلك فقال لهم:

- ما تقولون في هذا الأمر؟.
- أنت المفزع، والمنزع.

فلم يرضه ذلك، وتلا قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيداً** ﴾.

ثم قال لهـم:

«أما والله إني وإياكم لنعلم ابن بجدتها والخبير بها».

ـ كأنك أردت ابن أبي طالب.

ـ وأنى يعدل بي عنه، وهل طفحت حرة مثله.

ـ لو دعوت به يا أمير المؤمنين.

ـ إن هنـاك شمخـاً من هـاشـم وأثـره من عـلم، ولحمـه من رسول الله (ص) يؤتى ولا يأتي، فامضوا بنا إليه.

وخفوا جميعاً إليـه فألقـوه في حائط لـه، وعليه تبـان، وهو يتر كل على مسحـاته ويقـرأ أيَحسَبُ الإنْسَانُ أنْ يُتْـرَكَ سُدًى ﴾ إلى آخـر السورة ودموعه تنهمر على خديه، فاجهش القوم بالبكـاء، ثم سكتوا فسـأله عمـر عما ألم به فأجابه عنه، فقال له عمر:

ـ أما والله لقد أرادك الحق، ولكن أبى قومك.

ـ يا أبا حفص خفض عليك من هنا، ومن هنا، وقرأ قـوله تعـالى: ﴿ إنَّ يَوْمَ الفَصلِ كَانَ مِيقَاتاً ﴾.

وذهل عمر، فوضع إحدى يديـه على الأخرى، وخـرج كأنمـا ينظر في رماد[1]. قيل لعمـر: إنك استعملت يـزيد بن أبي سفيـان، وسعد بن العـاص، وفلانـاً وفلانـاً من المؤلفة قلوبهم من الـطلقاء وأبنـاء الطلقـاء، وتركت أن تستعمل علياً والعباس والزبير وطلحة؟!!.

فقـال: أما علي فـأنبه من ذلـك، وأما هؤلاء النفـر من قريش فـإني أخاف أن ينتشروا في البلاد فيكثروا فيهـا الفساد، وعلق ابن أبي الحـديد على كلامه هذا بقوله:

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٢/ ٧٩ ـ ٨٠.

«فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك، ويدعيه كل واحد منهم لنفسه كيف لم يخف من جعلهم ستة متساويين في الشورى، مرشحين للخلافة! وهل شيء أقرب إلى الفساد من هذا..»[1].

تحريم عمر لمتعة الحج:

إن الله ورسوله قد أحلَّ متعة الحج للأبد وقد حرّمها عمر، ومعنى متعة الحج أو حج التمتع هو أن من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام يحرم من الميقات للعمرة في أشهرالحج برغم أهل الجاهلية الذين يرون العمرة في أشهرا لحج من أفجر الفجور في الأرض، فيأتي مكة ويطوف بالبيت سبعاً ويصلي ركعتين في مقام إبراهيم أو خلفه ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعاً ثم يحل إحرامه فيجوز له كلما حرم عليه بالإحرام حتى التطيب بالطيب ومجامعة النساء في فروجهن كلما شاء مرةً أو مراراً برغم أنوف الذين يزعمون أنهم أبر وأتقى من رسول الله (ص)، وبهذا سميّ هذا القسم من الحج بالتمتع وأصله من الالتذاذ والاستمتاع فإذا كان يوم التروية أحرم من مكة إحراماً جديداً للحج وخرج إلى عرفات ووقف بها ثم إلى المشعر ووقف به ثم إلى منى وأدى مناسكه من الرمي والذبح والحلق أو التقصير ثم يأتي مكة ويطوف بالبيت سبعاً ويصلي ركعتين ويسعى بين الصفا والمروة سبعاً فيحل له حينئذ كل شيء إلاَّ النساء عند الإمامية فيطوف بالبيت سبعاً ثانياً ويصلي ركعتين فتحل له النساء أيضاً فيرجع إلى منىً للمبيت ليلتين أو ثلاث وللرمي يومين أو ثلاث وهذا هو حج التمتع.

لقد كان أهل الجاهلية يرون العمرة في أشهرالحج ـ شهر شوال،

---

(١) نهج البلاغة ٩/ ٢٩ ـ ٣٠.

وشهـر ذي القعدة وشهـر ذي الحجـة من أفجـر الفجـور في الأرض وقـد وردت نصوص كثيرة في هذا الخصوص ـ وفيما يلي بعضها:

(صحيـح البخاري) كتـاب الحـج بـاب التمتـع والإقـران والإفـراد (روي بسنده) عن ابن عباس قال كانوا يرون العمرة في أشهرا لحـج من أفجـر الفجور في الأرض ويجعلون المحـرم صفـراً (أي يسمـون المحرم صفراً) ويقولون إذا برأ الـدبر وعفـا الأثر وانسلخ صفـر حلت العمرة لمن اعتمر فلما قدم النبي(ص) وأصحابه صبيحة رابعة(أي من ذي الحجة)مهلئين (أي محـرمين) بالحـج فأمـرهم أن يجعلوها عمـرة فتعاظم ذلـك عنـدهم فقـالـوا يـا رسـول الله أي الحـل قـال حـلّ كله (ورواه مسلم أيضـاً في صحيحـه) في كتاب الحـج بـاب جـواز العمـرة في أشهـرا لحـج (ورواه أحمـد بن حنبل) أيضـاً في مسنده جـ ١ ص ٣٥٣ (ورواه البيهقي) أيضـاً في سننــه جـ ٤ ص ٣٤٥ وقــال أخــرجــه البخــاري ومسلم يعني فـي صحيحيهما (ورواه الطحاوي) أيضاً في مشكل الآثار جـ ٣ ص ١٥٥.

إن الإحلال بعد عمرة التمتع ومجامعة النساء في فروجهن من قبل أن يحرم للحج ويخرج إلى منى وعرفات كان عظيماً عند ضعفاء العقـول من المسلمين وكانوا يكرهونـه جداً حتى كـادوا يعصون رسـول الله (ص) في أمره بالإحلال معللين كراهيتهم له وللترخيص في مجـامعة النسـاء بما قـالوه من أنـه يروح أحـدنا إلى منى وذكـره يقطر منيـاً يعني من مجـامعـة النساء أو رأسه يقطر ماءً يعني من غسل الجنابة فكأنهم يـرون أنفسهم أبر وأتقى لله من رسول الله (ص) وقد ورد في هذا المعنىٰ نصوص متواترة بل فوق التواتر وهذه بعضها:

(صحيح البخاري) في الشركة في الطعام باب الاشتراك في الهدي (روى بسنـده عن عطاء عن جـابر عن طـاوس وعن ابن عباس قـال قـدم

النبي (ص) صبح رابعة من ذي الحجة مهلّين بالحج لا يخلطهم شيء فلما قدمنا أمرنا فجعلناها عمرة وإن نحلّ إلى نسائنا ففشت في ذلك القالة قال عطاء فقال جابر فيروح أحدنا إلى منى وذكره يقطر منياً فقال جابر بكفّه فبلغ ذلك النبي (ص) فقام خطيباً فقال بلغني أن أقواماً يقولون كذا وكذا والله لأنّا أبر وأتقى لله منهم ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدى لأحللت فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله هي لنا أو للأبد فقال لا بل للأبد (الحديث).

(ورواه أبو داود) أيضاًفي صحيحه جـ ١١ باب إفراد الحج باختلاف يسير (ورواه أحمد بن حنبل أيضاً في مسنده) جـ ٣ ص ٣٠٥ ورواه غير هؤلاء أيضاً من جمع كثير من أئمة الحديث ولا حاجة إلى الاستقصاء الكل ممن رواه جميعاً.

(أما تحليل الله تبارك وتعالى لمتعة الحج) ففي كتابه المجيد حيث قال في سورة البقرة ﴿ **فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إلى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهدَى فَمَن لَم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَة أيَّامٍ في الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْتُم تِلكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَمْ يَكُنْ أهلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ** ﴾ (وأما تحليل رسول الله (ص) لها فالروايات في ذلك فوق التواتر بل فوق الإحصاء كما يظهر بمراجعة كتب الأخبار ولكن نحن نذكر لك جملة منها.

(صحيح النسائي) جـ ٢ ص ٢٣ (وصحيح ابن ماجه) في أبواب المناسك ص ٢٢٠ (وصحيح أبي داود) جـ ١١ باب إفرادا لحج (ومسند أحمد بن حنبل) جـ ١ ص ٢٣٦ وص ٢٥٣ وص ٢٥٩ وص ٢٩٢ وص ٣٦٦ إلى غير ذلك.

(وأما تحريم عمر لمتعة الحج) مع تحليل الله تعالى ورسوله لها كما عرفت بل ومع تصريح رسول الله (ص) بأنها للأبد بل لأبد الأبد أو إلى يوم القيامة فالروايات في ذلك أيضاً متواترة ونحن نذكر لك جملة منها وفيها الكفاية.

(صحيح البخاري) كتاب التفسير باب فيمن تمتع بالعمرة إلى الحج (روى بسنده) عن عمران بن حصين قال أنزلت آية المتعة في كتاب الله فعلناها مع رسول الله (ص) ولم ينزل قرآن يحرّمها ولم ينه عنها حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء (يعني بالرجل عمر) (ورواه أيضاً) باختلاف يسير في كتاب الحج في باب التمتع (ورواه مسلم أيضاً في صحيحه) في كتاب الحج في باب جواز التمتع رواه بطريقين (بل روي في الباب المذكور (عن عمران بن حصين روايات عديدة في هذا المعنى يقرب من نحو عشرة أحاديث فراجع (كما أن ابن ماجه) أيضاً قد روى في صحيحه ص ٢٢٠ رواية عن عمران بن حصين في هذا المعنى (ورواه أحمد بن حنبل) أيضاً في مسنده جـ ٤ ص ٤٢٩ (وروى) في ص ٤٢٨ رؤاية أخرى عن عمران بن حصين في هذا المعنىٰ ورواه جمع آخرون أيضاً من أئمة الحديث بطرق عديدة ولا حاجة إلى استقصاء الجميع بتمامها.

(صحيح مسلم) كتاب الحج باب التقصير في العمرة وفي كتاب النكاح باب نكاح المتعة (روى بسنده) عن أبي نضرة قال كنت عند جابر بن عبد الله الأنصاري فأتاه آتٍ فقال إن ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين (يعني متعتي الحج والنساء(فقال جابر فعلناهما مع رسول الله (ص) ثم نهانا عنهما عمر (ورواه أحمد بن حنبل) أيضاً في مسنده جـ ٢ ص ٥٢ باختلاف في اللفظ وفيه تصريح من عمر بأن المتعتين كانتا على عهد رسول الله(ص) أحديها متعة الحج والأخرى متعة

النساء وفي جـ ٣ ص ٣٢٥ وقال فيه جابر متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) فنهانا عنهما عمر وفي ص ٣٥٦ وفي ص ٣٦٣ وفيهما التصريح أيضاً بمتعتي الحج والنساء وأنه فعلناهما في عهد رسول الله (ص) ونهانا عنهما عمر (ورواه أبو داود الطيالسي أيضاً) في مسنده جـ ٨ ص ٢٤٠ والبيهقي في سننه جـ ٥ ص ٢١ وقالا فيه قال عمر فافصلوا حجكم من عمرتكم وابتوا نكاح هذه النساء فلا أوتي برجل تزوج أمرأة إلى أجل إلاَّ رجمته (وروا ه البيهقي) في جـ ٧ أيضاً في باب نكاح المتعة بطريقين قال في الطريق الثاني قال عمر متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما أحديهما متعة النساء ولا أقدر على رجل تزوج امرأةً إلى أجل إلاَّ غيّبتهُ بالحجار والأخرى متعة الحج افصلوا حجكم من عمرتكم فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم (ورواه الطحاوي) أيضاً في شرح معاني الآثار في كتاب مناسك الحج ص ٤٠١ (وذكره المتقي أيضاً) في كنز العمال جـ ٨ ص ٢٩٤ بطريقين وقال أخرجهما ابن جرير وقال في الثاني فآتوا الحج والعمرة كما أمركم الله وأتموا نكاح هذه النساء فلا أوتي برجل تزوج امرأةً إلاَّ رجمته بالحجارة (ورواه جمع آخرون أيضاً) من أئمة الحديث ولا حاجة إلى استقصاء الجميع.

تحريم عمر لمتعة النساء:

• ومعنى متعة النساء بنحو الاختصار فهي النكاح المؤجل إلى وقت معين من شهر أو شهرين ونحوهما ولا أجل في النكاح الدائم أبداً ويعتبر في المتعة تعيين المهر أيضاً ولا يعتبر ذلك في النكاح الدائم أصلاً فإذا قالت المرأة للرجل في النكاح الدائم زوجتك نفسي وقال الرجل قبلت صحّ وكفى بخلاف الثاني فلا يصحّ ولا يكفي ما لم تقل المرأة زوجتك

نفسي شهراً مثلاً بدينارين مثلاً وكل من النكاحين مما له عدة إذا دخل بها فعدة الدائم ثلاثة قروء وعدة المتعة قرئان أي حيضتان وفي بعض الأخبار حيضة واحدة.

ومتعة النساء أحلها الله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾، وقد ذكر جماعة من التابعين أنه المراد بهذه الآية هو نكاح المتعة.

الحافظ جلال الدين السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن (قال) وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس قال يرحم الله عمر ما كانت المتعة إلاَّ رحمة من الله رحم بها أمة محمد (ص) ولولا نهيه عنها ما احتاج إلى الزنا إلاَّ شقي قال وهي التي في سورة النساء فما استمعتم به منهن إلى كذا وكذا من الأجل على كذا وكذا (يعني على كذا وكذا من المهر) قال وليس بينهما وراثة (الحديث) ويؤيده أما عن جماعة من اصحابة منهم أبي بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وسعيد ابن جبير من أنهم قرأوا فما استمتعتم به منهن إلى أجلٍ مسمّى فأتوهن أجورهن وهذا صريح في أن المراد من الآية هو نكاح المتعة أي المؤجل إلى وقتٍ معين (وقد حكى) عن الثعلبي في تفسيره أنه روى عن حبيب بن أبي ثابت قال أعطاني ابن عباس مصحفاً فقال هذا على قراءة أبي فرأيت في هذا المصحف فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمّى (وحكى عنه) أيضاً أنه روى بإسناده عن أبي نضرة قال سئلت ابن عباس عن المتعة فقال أما تقرأ سورة النساء فقلت بلى فقال فما تقرأ فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى قلت لا أقرئها هكذا قال ابن عباس والله هكذا أنزلها الله تعالى ثلاث مرات.

(وأما تحليل رسول الله (ص) المتعة النساء وتحريم عمر لها) فقد ورد في هذا المعنى روايات متواترة وهذه بعضها:

(صحيح البخاري) في كتاب النكاح (روى بسنده) عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع قالا كنّا في جيش فأتانا رسول الله (ص) فقال إنه قد أذن لكم أن تستمتعوا (ورواه مسلم) أيضاً في صحيحه في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة بطريقين (ورواه أحمد بن حنبل) أيضاً في مسنده جـ ٤ ص ٤٧ وص ٥١ (ورواه الطحاوي) أيضاً في شرح معاني الآثار في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة باختلاف في اللفظ.

(صحيح البخاري) في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى هو الله الخالق البارىء المصور (روى بسنده) عن أبي سعيد الخدري في غزوة بني المصطلق أنهم أصابوا سبايا فأرادوا أن يستمتعوا بهن ولا يحملن فسألوا النبي (ص) عن العزل فقال ما عليكم أن لا تفعلوا فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة.

(صحيح مسلم) في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة (روى بسنده) عن عطاء قال قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجئناه في منزله فسأله القوم عن أشياء ثم ذكروا المتعة فقال نعم استمتعنا على عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر (ورواه أبو داود) أيضاً في صحيحه جـ ١٣ باب الصداق باختصار (ورواه أحمد بن حنبل) أيضاً في مسنده جـ ٣ ص ٣٨٠ (وذكره المتقي أيضاً) في كنز العمال جـ ٨ ص ٣٩٤ وقال أخرجه عبد الرزاق.

(صحيح مسلم) في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة (روى بطرق عديدة) عن إسماعيل عن قيس قال سمعت عبد الله يقول كنا نغزو مع رسول الله (ص) ليس لنا نساء فقلنا ألاَّ نستخصي فنهانا عن ذلك ثم

رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ عبد الله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ (ورواه أحمد بن حنبل) أيضاً في مسنده جـ ١ ص ٤٢٠ وبطريق آخر من ٤٣٢ (ورواه البيهقي) أيضاً في سننه جـ ٧ في باب نكاح المتعة بأربعة طرق (ورواه الطحاوي) أيضاً في شرح معاني الآثار في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة (ورواه الإمام الشافعي) أيضاً في مسنده ص ٢١٦ وقبله ص ٩٤ وقال ثم رخص لنا أن ننكح (صحيح مسلم) في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة (روى بسنده عن أبي الزبير قال سمعت جابر بن عبد الله يقول كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله وأبي بكر حتى نهى عمر عنه في شأن عمرو بن حريث (ورواه البيهقي) أيضاً في سننه جـ ٧ في باب ما يجوز أن يكون مهراً بطريقين (وذكره العسقلاني) أيضاً في تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ٣٧١ (وذكره المتقي) أيضاً في كنز العمال جـ ٨ ص ٢٩٤ وقال في آخره وكنا نعتد من المستمتع منهن بحيضه قال أخرجه عبد الرزاق.

(مسند) الإمام أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ٢٢ (روى بسنده عن أبي سعيد الخدري قال كنا نتمتع على عهد رسول الله (ص) بالثوب).

(مسند) الإمام أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ٣٠٤ (روى بسنده) عن جابر بن عبد الله قال كنا نتمتع على عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر حتىٰ نهانها عمر أخيراً يعني متعة النساء.

(مسند) أبي داود الطيالسي جـ ٧ ص ٢٢٧ (روى بسند) عن مسلم القرشي قال دخلنا على أسماء بنت أبي بكر فسألناها عن متعة النساء فقالت فعلناها على عهد رسول الله (ص).

(الطحاوي) في شرح معاني الآثار في كتاب النكاح باب النكاح المتعة (روى بسنده) عن سعيد بن جبير قال سمعت عبد الله بن الزبير يخطب وهو يعرض بابن عباس يعيب عليه قوله في المتعة فقال ابن عباس يسأل أمه إن كان صادقاً فسألها فقالت صدق ابن عباس قد كان ذلك فقال ابن عباس لو شئت لسميت رجالاً من قريش ولدوا فيها (يعني في المتعة).

(الطحاوي) في شرح معاني الآثار في كتاب النكاح في باب نكاح المتعة (روى بسنده) عن عطاء عن ابن عباس قال ما كانت المتعة إلّا رحمةً رحم الله بها هذه الأمة ولولا نهي عمر بن الخطاب عنها ما زنى إلّا شقي قال عطاء كأني أسمعها من ابن عباس إلّا شقي.

بدعة عمر في الطلاق الثلاث:

إن الطلاق الثلاث في زمن النبي (ص) وأبي بكر وشيء من زمن عمر كان يعد بواحدة فإذا قال لزوجته أنت طالق ثلاثاً أو أنت طالق أنت طالق ـ أنت طالق كان يحسب ذلك طلاقاً واحداً فإذا رجع إليها الزوج في العدة أو عقد عليها بعد العدة حلّت له من غير حاجة إلى محلّل لها بأن تنكح زوجاً آخر ويواقعها ويطلّقها (نعم) إن الزوج إذا طلقها أو رجع إليها في العدة أو عقد عليها بعد العدة ثم طلقها ثانياً ثم رجع إليها في العدة أو عقد عليها بعد العدة ثم طلقها ثالثاً فعند ذلك لا يجوز للزوج الرجوع إليها في العدة ولا العقد عليها بعد العدة حتى تنكح زوجاً غيره كما في الآية الكريمة ويواقعها ويطلقها وتنقضي عدتها فعند ذلك تحّل لزوجها الأول بمعنى أنه إن شاء عقد عليها وتزوجها (فعمر بن الخطاب) لما رأى في أيام إمارته أن الناس قد أكثروا في الطلاق الثلاث بمعنى أنهم يطلقون أزواجهم بهذا القول أنت طالق ثلاثاً أو أنت طالق ـ أنت طالق

أنت طالق فأمضاه عليهم بمعنى أنه عد ذلك القول طلاقاً ثلاثاً فلم يسمح لهم الرجوع إليها في العدة ولا العقد عليها بعد العدة حتى تنكح زوجاً غيره كل ذلك برأيه ونظره فأبدى رأياً في قبال رأي الله تعالى ورسوله (وتظهر الثمرة) بين الرأيين فيما إذا طلق زوجته بقوله أنت طالق ثلاثاً أو أنت طالق أنت طالق أنت طالق ثم رجع إليها في العدة أو عقد عليها بعد العدة فحسب حكم الله تعالى ورسوله أنها زوجته وهو بعلها وحسب حكم عمر أنها ليست زوجته ولا هو بعلها حتى تنكح زوجاً غيره فإذا فرض أنها قد تزوجت بآخر والحالة هذه ودخل بها فحسب حكم الله تعالى ورسوله قد حرمت على الثاني مؤبداً لأنه قد تزوج بذات بعل وقد دخل بها وبحسب حكم عمر هي حلال له حرام على الأول (هذا كله) توضيح ما في هذا الباب بنحو الاقتصار وأما الأخبار الواردة في هذا المعنى أي في إمضاء عمر بن الخطاب الطلاق الثلاث المعدودة واحدة طلاقاً ثلاثاً عليهم فهذا تفصيل ما تيسر منها:

(صحيح مسلم) كتاب الرضاع باب طلاق الثلاث (روى بسنده) عن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة فقال عمر بن الخطاب إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم (أقول) (ورواه الحاكم أيضاً في مستدرك الصحيحين جـ ٢ ص ١٩٦ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين (ورواه أحمد بن حنبل) أيضاً في مسنده ١ ص ٣١٤ (والبيهقي) أيضاً في سننه جـ ٧ ص ٣٣٦ (والدارقطني) أيضاً في سننه في كتاب الطلاق ص ٤٤٤ (وذكره السيوطي) أيضاً في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى الطلاق مرتان في سورة البقرة وقال أخرجه عبد الرزاق ومسلم وأبو داود والنسائي والحاكم البيهقي. (صحيح أبو دلود) جـ ١٣ ص ٢١٨ (روى بسنده) عن طاوس

إن رجلاً يقال له أبو الصهباء كان كثيـر السؤال لابن عباس قـال أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وصدراً من إمارة عمر قـال ابن عباس بـل كان الرجل إذا طلق امرأته ثلاثـاً قبل أن يـدخل بهـا جعلوها واحـدة على عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وصدراً من إمارة عمر فلمـا رأى أن الناس تتـابعوا فيهـا قـال أحيـزهن عليهم (ورواه البيهقي) أيضـاً في سننـه جـ ٧ ص ٣٣٦ (ورواه الدارقطني) أيضـاً في سننه ص ٤٤٤ (وذكـره السيوطي) أيضاً في الدل المنثور في تفسير قوله تعالى الطلاق مرتان في سورة البقرة (وقال) أجيزوهن عليهم.

عمر يقصي الأمة من الميدان:

ذات يوم سمع عمر أن المسلمين يتحلقون حلقاً حلقاً، ويتسـائلون عن وضع البلاد السياسي بعد مـوته فـانزعـج جداً لهـذا التفكير لأنـه كان خارجاً عن فلكه، فالتفكير المستقل في نظر عمر معناه وجود الإمـام علي في الميـدان، معنـاه وجـود خط المعـارضين لنهجـه في الميـدان، كلمـا استطاعت الأمة أن تفكر باستقـلالية، كلمـا تأصلت أكثـر فأكثـر واكتسبت عنفوانها وإرادتها ووعيها بدرجةٍ أعمق، كلمـا كان الإمـام علي هو الأكفـأ والأقدر لزعامة التجربة، لهذا صعد عمر المنبر وقـال: إن أقوامـاً يقولـون مـاذا ومن يحكم بعـد أميـر المؤمنين؟ إلَّا أن بيعـة أبي بكـر كـانت فلتــة وقَـى الله المسلمين شرها!!.

فعمر أراد أن يمنع الأمة من التفكير في أمر الخلافة، لكنه لم يجد وسيلة إلى ذلك غير اتهامها بـأنها عـديمة التفكيـر لأنها فكـرت في تعيين الحـاكم بعد وفـاة الـرسـول (ص) وفشلت. . كـان ذلـك فلتـة وقَـى الله المسلمين شرها، والأمة يجب أن لا تعود لمثل ذلك.

لقد نسي عمر أو تناسى أنه هو الذي شيد أركان بيعة أبي بكر وليس الأمة، وأن درته لعبت دوراً بارزاً في استمالة الناس نحو هذه البيعة.

فالشخص يجب أن يعين لهم من حالٍ خاص، لكن لم يستطع، ولم يجرأ أن يبين هذا المفهوم، وإلَّا هو في نفسه كان هكذا يرى، كان يرى أن الأمة يجب أن تستمع منه وهو يعين من أعلى هذا الحاكم، لا أن الأمة نفسها تفكر في تعيين هذا الحاكم كما فكرت مثلاً عقيب وفاة رسول الله (ص) كان ذلك فلتة..

وحينما طلب منه المتملقون وهو على فراش الموت أن يوصي وأن لا يهمل أمة محمد (ص) حينما طلبوا منه ذلك عين الشخص الذي في نفسه ولكن لم يعلن عن اسمه لعلمه بعدم رغبة الأمة فيه، فجعله سادس ستة، وإنما قصر عمر أعضاء الشورى على الستة بحجة أن رسول الله (ص) مات وهو عنهم راضي وهذه الحجة لا تصلح دليلاً على التعيين لأن رسول الله (ص) مات وهو راض عن كثير من صحابته، فتقديم الستة عليهم إنما هو من باب الترجيح بلا مرجح، وهو مما يتسم بالقبح كما يقول علماء الأصول.

وعندما أسند عمر الأمر إلى ستة هم يعينون فيما بينهم واحداً منهم فقد أطفأ دور الأمة لأنها لم تشأ هذه الصناعة في هؤلاء الستة. هكذا كانت المؤامرة على وجود الأمة تنفذ بالتدريج.

ورغم عدم إعطاء الأمة الحرية في اختيار من ترغب فيه للحكم إلَّا أنّها لا تزال تحتفظ بدرجة كبيرة من وجودها.. لأن الإمام علي (ع) الذي كان تعبيراً وتأكيداً على وجودها في الميدان لا زال المرشح القوي للخلافة في هؤلاء الستة، ولهذا جعل عمر أمر الترجيح في أعضاء

الشورى للجبهة التي تضم عبد الرحمن بن عوف، وقدمها على الجبهة التي تضم الإمام أميرا لمؤمنين (ع) وهو تحيز ظاهر للقوى الرأسمالية الحاقدة على الإمام والباغية عليه.

ولما مضى عمر إلى مثواه الأخير اجتمع الستة في بيت المال وقيل في بيت مسرور بن مخرمة وقد أحاطت بهم الشرطة وتداولوا فيما بينهم الحديث عمن هو أحق بالأمر وأولى به وكثر الصخب والجدل، وانبرى إليهم الإمام (ع) فحذرهم مغبة ما يحدث من الفتن والفساد إن استجابوا لعواطفهم ولم يؤثروا مصلحة الأمة فقال: «لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة الحق، وصلة رحم وعائدة كرم، فاسمعوا قولي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتظي فيه السيوف، وتخان فيه العهود حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الظلال، وشيعة لأهل الجهالة..»[1].

إنهم لو سمعوا قوله، ووعوا منطقة لصانوا الأمة من التيارات الجارفة، وعادوا عليها بالخير العميم، ولكنهم انطلقوا وراء شهوات الملك والسلطان وتحقق ما تنبأ به الإمام، فلم يمض قليل من الوقت حتى انتضت السيوف، وانتشرت الحروب، وسادت الفتن والأهواء، وصار بعضهم أئمة لأهل الظلالة، وشيعة لأهل الجهالة.

وعم الجدل بين القوم فلم ينتهوا إلى غاية فرفعت الجلسة، وجماهير الشعب تنتظر بفارغ الصبر النتيجة الحاسمة، وعقد الاجتماع الثاني إلاَّ أنه باء بالفشل، فأشرف عليهم أبو طلحة الأنصاري وهو يتهدد ويتوعد قائلاً:

«لا والذي نفسَ عمر بيده إلاَّ أزيدكم على الأيام الثلاثة التي

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ٣١/٣٥.

أمرتم. . ». واقترب اليوم الثالث، وهو آخر موعد للقوم فانعقد الاجتماع وبدت فجأة الاندفاعات القبلية التي شذت عن مصلحة الأمة، فقد انبرى طلحة فوهب حقه لعثمان، وإنما فعل ذلك استجابة لعواطفه المترعة بالكراهية لأمير المؤمنين (ع) لأنه نقم على بيعة ابن عمه أبي بكر، واندفع الزبير فوهب حقه للإمام، وانطلق سعد بن أبي وقاص فوهب حقه لابن عمه عبد الرحمن بن عوف، تقوية لجانبه، وتعزيزاً لمركزه. وكان رأي عبدا لرحمن هو الفيصل، لأن عمر قد وضع ثقته به، وأناط به أمر الشورى، وكان له هوى مع عثمان، لأنه صهره، وقد استشار عامة القرشيين، فحرضوه على انتخاب عثمان، لأنه يحقق أطماعهم ورغباتهم.

لكن عبد الرحمن لم يجرأ ولم يستطع أن يرشح عثمان للخلافة، لأنه كان يعرف بكراهية الجماهير المسلمة له، لهذا لجأ إلى طريقة المداورة والانتهازية فالتفت للإمام علي (ع) قائلاً له:

«هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيه، وفعل أبي بكر وعمر؟!!. ورمقه الإمام بطرفه، وعرف غايته، فأجابه بمنطق الإسلام ومنطق الأحرار:

بل على كتاب الله، وسنّة رسوله، واجتهاد رأي. . ». إن مصدر التشريع في الإسلام إنما هو كتاب الله وسنّة نبيه، فعلى ضوئهما تعالج مشاكل الناس، ويسير نظام الدولة، وليس فعل أبي بكر وعمر من مصادر التشريع الإسلامي، على أنهما اختلفا أشد الاختلاف في النظم السياسية، فقد انتهج أبو بكر في سياسته المالية منهجاً أقرب إلى المساواة من سياسة عمر فإنه ألغى المساواة في العطاء، وأوجد نظام الطبقية، فقدم بعض المسلمين على بعض، وشرع حرمة المتعتين متعة الحج، ومتعة النساء في حين أنهما كانتا مشروعتين في عهد

رسول الله (ص) وأبي بكر وكانت آراؤه الخاصة في كثير من المجالات التشريعية.

فعلى أي المنهجين يسير الإمام علي ربيب الوحي ورائد العدالة الاجتماعية في الإسلام.

إن الإمام لو وافق على الالتزام بما شرط عليه ابن عوف لما أمكنه أن يطبق أي منهج من مناهج سياسته الهادفة إلى نشر العدل بين الناس، ومن المقطوع به أن الإمام حتى لو التزم بهذا الشرط ظاهراً لحالت قريش بينه وبين تطبيق أهدافه، ولم تدع له أي مجال لتحقيق العدل الاجتماعي والسياسي، ويكون خروجها عليه مشروعاً لأنه لم يف لها بوعده. وعلى أي حال فإن عبدالرحمن لما يئس من تغيير اتجاه الإمام انبرى إلى عثمان فشرط عليه ذلك فسارع إلى إجابته، وأظهر استعداده الكامل لكل ما شرط عليه وفيما أحسب أن هناك اتفاقاً سرياً بين القوى الرأسمالية أحيط بكثير من الكتمان فإنه بأي حال لا ينتخب الإمام وإن أجاب لشرط عبد الرحمن. أن عمر يعلم علماً جازماً لا يخامره أدنى شك أن الإمام لو تقلد زمام الحكم لطبق شريعة الله في الأرض، وساس المسلمين سياسة قوامها العدل الخالص، والحق المحض، ولم يمنح الأسر القرشية أي جهة من الامتياز وساوى بينها وبين غيرها في جميع الحقوق والواجبات، فتفوت بذلك مصالح هذه الطبقة التي جنت على الإسلام، وجرت للمسلمين أعظم الويلات والخطوب.

وعلى أي حال فإن عثمان لما قبل بشرط بن عوف صفق بكفه على يده وقال له: «اللهمّ إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان..». وانطلق الإمام علي صوب ابن عوف فخاطبه قائلاً:

«والله ما فعلتها إلاَّ لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم»[1].

واتجه الإمام صوب القرشيين فقال لهم:

«ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

ولذع منطق الإمام ابن عوف فراح يهدده.

«يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً».

---

(١) منشم ـ بكسر الشين ـ كما يقول المؤرخون اسم امرأة بمكة كانت عطارة وكانت فزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها فإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى بينهم، فكان يقال: «أشأم من عطر منشم» جاء ذلك في صحاح الجوهري ٣٠٤١/٥ وقد استجاب الله دعاء الإمام فكانت بين عثمان وابن عوف أشد العداوة وقد أوصى ابن عوف أن لا يصلي عليه بعد موته.

واستقبلت الجماهيرا لمسلمة خلافة عثمان بمزيد من القلق والوجوم والاضطراب، وفزعت القوى المناهضة لنهج السقيفة فزعاً شديداً واعتبرت وصول عثمان إلى سدة الحكم انتصاراً للأمويين أعداء الدين، وقد حزن الإمام أمير المؤمنين على ضياع حقه، واعتبر الشورى مؤامرة ومكيدة دبرت لصرفه عن زعامة التجربة الإسلامية. وحينما فرضت القوى الرأسمالية عثمان خليفةً على المسلمين حفت به بنو أمية وآل أبي معيط، وهم يعلنون وقوفهم الكامل إلى جانبه، ويهتفون بحياته، وجاءوا به يزفونه إلى مسجد رسول الله (ص). ليتحدث أمام الناس عن طبيعة سياسته الداخلية والخارجية، واعتلى أعواد المنبر فجلس في المكان الذي كان يجلس فيه رسول الله (ص)، وتكلم الناس في ذلك فقال بعضهم: «اليوم وُلد الشر»[١].

واتجهت الناس صوب قائدها الجديد لتسمع خطابه السياسي إلاَّ أنه حينما نظر إلى الجماهير ارتج عليه، فلم يدر ما يقول: وجهد نفسه فتكلم بهذه الكلمات المضطربة التي لم تلق أي أضواء على سياسته فقد قال: «أما بعد: فإن أول مركب صعب، وما كنا خطباء، وسيعلم الله وأن أمرءاً ليس بينه وبين آدم إلاَّ أب ميت لموعظ..»[٢]. ونزل من المنبر،

(١) تاريخ ابن كثير ٧/١٤٨، تاريخ اليعقوبي ٢/١٤٠.
(٢) الموفقيات ص ٢٠٢.

وهو وجل القلب، مصفر الوجه، فجعل الناس ينظر بعضهم إلى بعض وهم يهزؤون ويسخرون.

ولا بدّ لنا من إلقاء الضوء على سياسته التي أشعلت نار الفتن في جميع أنحاء البلاد، وجرت للمسلمين الويلات والخطوب.

في عهد عثمان انقلبت المفاهيم والمقاييس التي كانت على عهد رسول الله (ص) رأساً على عقب، وأسدل الستار على بقايا السياسة العادلة التي انتهجها نبينا العظيم، وظهرت محلها سياسة الأثرة. وصف بعض المؤرخين عثمان بالرأفة واللين والرقة والتسامح إلاّ أن ذلك كان مع أسرته وذويه أما مع المعارضين لنهجه فقد كان شديد القسوة، فقد بالغ في إرهاقهم واضطهادهم، وقابلهم بمزيد من العنف، فنفى أبا ذر إلى مكان ليس فيه وسائل الحياة حتى مات طريداً غريباً، ونكل بالصحابي الكبير عمار بن ياسر أشد تنكيل وأصدر أوامره لشرطته بضرب الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود فألهبت جسمه سياطهم وألقوه في الطريق بعد أن هشموا أضلاعه، وحرم عليه عطاءه، ونكل بجميع معارضيه.

لقد آثر عثمان بنو أمية وآل أبي معيط بالفيء حتى صاروا يقولون بكل صراحة:

«المال مالنا والخراج خراجنا والأرض أرضنا إن شئنا أعطينا للآخرين وإن شئنا حرمناهم».

إن عثمان كان يصانع الوجوه والأعيان ويتسامح مع ذوي النفوذ والقوة، ويغض بصره عما يقترفونه من المخالفات القانونية، فقد تعمد عبيد الله بن عمر جريمة القتل، فقتل بغير حق الهرمزان وجفينة، وبنت أبي لؤلؤة وقد أقفل عثمان معه سير التحقيق وأصدر مرسوماً خاصاً بالعفو عنه ممالئة لأسرة عمر، وقد قوبل هذا الإجراء بالاستنكار، فقد اندفع

الإمـام أمير المؤمنين (ع) إلى الإنكـار عليه وطـالبه بـالقود من ابن عمـر، وكذلك طالبه المقـداد ولكن عثمان قـام بإخـراج ابن عمر من يثـرب إلى الكوفة، وأقطعه بها أرضاً، فنسب الموضع إليه فقيل: «كوفية ابن عمر».

وقـد أثارت هـذه البادرة عليـه نقمة الأخيـار والمتحرجين في دينهم فقـد رأووا أن الخليفة عمـد بغير وجـه مشـروع إلى تعـطيـل حـدود الله، إرضاءً لعواطف أسرة عمر وكسباً لودهم. وفرض عثمان أسرته وذويه على الأمة فجعلهم ولاة وحكاماً على الأقاليم الإسـلامية. يقـول المقريـزي: «وجعل عثمان بني أمية أوتاداً لخلافته»[1].

ولم تتـوفر فيهم المقـدرة على إدارة شؤون النـاس فعـرضـوا البـلاد للويلات. وأشاعوا فيها الفساد والجور وفيما يلي بعض عماله:

١ ـ سعيد بن العاص:

بعد عزله للوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة أسند عثمان ولايتهـا إلى سعيد بن العاص، وقد استقبل أهل هذه المدينة واليهم الجديد بالكراهية لأنه كان شاباً مترفاً مشهوراً لا يراعي حرمة ولا يقف عنـد اشتباه، ويقـول المؤرخـون: إنه قـال مرة في رمضـان من رأى منكم الهلال؟ فقـام رجـل العقيـدة والفداء هـاشم بن عقبة المـر قال فقـال: «أنا رأيتـه» فلم يعن به وإنما وجه إليه منكر القول وأقساه قائلاً: «بعينك هذه العوراء رايته؟!».

فرد عليه هاشم قائلاً:

«تعيـرني بعيني، وإنما فقئت في سبيـل الله، وكـانت عينـه أصيبت يوم اليرموك».

وأصبح هاشـم مفطراً، عملاً بقول رسول الله (ص): «صوموا لرؤيته

(١) النزاع والتخاصم ص ١٨.

وأفطروا لرؤيته» وفطر الناس لإفطاره، وسمع سعيد بذلك فأرسل إليه وضربه ضرباً مبرحاً، وحرق داره، وقد نقم الناس عليه لأنه اعتدى على بطلٍ من أبطال العقيدة. وكان سعيد في منتهى الطيش والغرور فقد أثر عنه أنه قال: «إنما السواد ـ يعني سواد الكوفة ـ بستان لقريش» وأثار ذلك نقمة عارمة عليه فانبرى إليه رجل العقيدة والفداء مالك الأشتر قائلاً: «أتجعل مراكز رماحنا، وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟ والله لو رامه أحد لقرع قرعاً يتصأصأ منه».

وانضم فقهاء الكوفة إلى مالك الأشتر مؤيدين مقالته ومنكرين على الوالي غروره وطيشه، وقاموا من مجلسه وأطلقوا ألسنتهم بنقده، وذكر مثالب عثمان وسيئاته، وأخذوا يذيعون في وسط الناس أفعال قريش وجرائم بني أمية، ورفع سعيد رسالة إلى عثمان أخبره فيها بشأن القوم، فأصدر عثمان أوامره بنفييهم إلى الشام، وكتب في نفس الوقت رسالة إلى معاوية يأمره فيها باستصلاحهم.

ولم يفعل هؤلاء الأحرار شيئاً مخالفاً لشريعة السماء التي منحت الحرية التامة لنقد الحاكمين والمسؤولين إذا انحرفوا، وجاروا على رعيتهم وجعلت هذه الحرية حقاً ذاتياً لكل مواطن، وألزمت الدولة برعايتها وتوفيرها للناس.

وعلى أي حال فإن شرطة عثمان قامت بإخراجهم من بلادهم وأرسلتهم إلى الشام، فوضعهم معاوية في كنيسة، وأخذ بعضهم، ويحبذ لهم مسالمة السلطة والرضا بسياستها إلاَّ أنهم رفضوا الانصياع له وأنكروا عليه ما قاله سعيد: من أن السواد بستان لقريش معلنين على أنه لا ميزة للقبائل القرشية على غيرها حتى تختص بخيرات البلاد.

وبعد أن أخفق معاوية في زحزحتهم شبراً واحداً عن موقفهم كتب

إلى عثمان يستعفيه من بقائهم في الشام خوفا من أن ينشروا بين أهله الإسلام الحقيقي. . لأن أهل الشام لا يعرفون إلاّ إسلام معاوية، فأعفاه عثمان، وأمره بردهم إلى الكوفة.

وظل هؤلاء الأحرار ينتقدون سياسة عثمان ويذكرون مثالب بني أمية حتى تمكنوا من طرد سعيد عن الكوفة.

ولم يجد عثمان بداً من عزله، فعزله وولى غيره مكانه على كره منه[1].

٢ ـ عبد الله بن عامر:

وبعد عزله لأبي موسى الأشعري عن ولاية البصرة عين عثمان ابن خاله عبد الله بن عامر والياً عليها وكان عمره أربعاً أو خمساً وعشرين سنة، وقد سار فيما يقول الرواة سيرة ترف وبذخ، فكان ولاجاً خراجاً، كما وصفه الأشعري[2] فهو أول من لبس الخز في البصرة وقد لبس جبة دكناء فقال الناس: لبس الأمير جلد دب فغير لباسه، ولبس جبة حمراء[3].

وقد أنكر عليه سياسته وسيرته عامر بن عبد الله التميمي كما عاب على عثمان سلوكه وسيرته، وقد روى الطبري أنه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان، فاجتمع رأيهم أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه، واختاروا عامر بن عبد الله لمقابلته، ولما التقى به قال له:

«إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٨٥.

(٢) الكامل ٣/٣٨.

(٣) أسد الغابة ٣/١٩٢.

ركبت أموراً عظاماً فاتق الله عزَّ وجلَّ، وتب إليه، وانزع عنها . . ».
فاحتقره عثمان وأعرض عنه، وقال لمن حوله:

انظروا إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات، فوالله ما يدري أين الله؟».

إن الرجل لم يكلم عثمان إلاّ بالتقوى والعدل في الرعية، وإيثار مصلحة المسلمين واتباع سيرة النبي (ص) ولكن عثمان شق عليه ذلك، واعتبر نصيحتَهُ من المحقرات. والتفت إليه عامر فقال ساخراً منه:

«أنا لا أدري أين الله؟».

«نعم».

«إني لأدري أن الله بالمرصاد».

وأرسل عثمان إلى مستشاريه وعمالهِ فعرض عليهم نقمة المعارضين له ونقل لهم حديث عامر معه، وطلب منهم الرأي في ذلك، فأشار عليه ابن خاله عبد الله بن عامر قائلاً:

«رأي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمهرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همَّ أحدهم إلاّ نفسه، وما هو فيه من دبر دابته، وقمل فروته. . ».

وأشار عليه آخرون بخلاف ذلك إلاّ أنه استجاب لرأي عبد الله الداعي إلى مقابلة المعارضين لسياسته بالعسف والعنف، ورد عماله وأمرهم بالتضييق على المعارضين له.

ولما رجع عبد الله بن عامر إلى البصرة استعمل كافة الوسائل الدنيئة ضد عامر بن عبد الله التميمي حتى استطاع من إبعاده إلى الشام بأمرٍ من عثمان، ولما انتهى إلى الشام أنزله معاوية (الخضراء) وبعث إليه جارية عيناً عليه، وتنقل له أخباره وشؤونه، وأشرفت عليه الجارية فرأته يقوم

الليل متعبداً، ويخرج من السحر فلا يعود إلاَّ بعد العتمة، ولا يتناول من طعام معاوية شيئاً، وكان يتناول كسراً من الخبز ويجعلها في الماء تحرجاً من أن يدخل جوفه شيء من الحرام، وانبرت الجارية فأخبرت معاوية بشأنه، فكتب إلى عثمان بأمره فأوعز إليه بصلته[1].

ونقم المسلمون على عثمان، وعابوا عليه ما ارتكبه في شأن هذا الرجل الصالح الذي أمره بتقوى الله والعدل.

وظل عبد الله بن عامر حاكماً على البصرة إلى أن قتل عثمان، فنهب ما في بيت المال وسار إلى مكة فوافى بها طلحة والزبير وعائشة فانضم إليهم، وأمدهم بالأموال ليستعينوا بها على حرب الإمام أمير المؤمنين (ع)، وهو الذي أشار عليهم بالنزوح إلى البصرة والانصراف عن الشام.

٣ ـ الوليد بن عقبة:

وعين عثمان الوليد بن عقبة والياً على الكوفة بعد أن عزل عنها سعد بن أبي وقاص الزهري، وأجمع المؤرخون على أنه كان من فساق بني أمية ومن أكثرهم مجوناً، وانحرافاً عن الإسلام وهو ممن أخبر النبي(ص) بأنه من أهل النار[2] وكان أبوه من ألد أعداء رسول الله (ص) فهدده (ص) بأنه إن وجده خارجاً من جبال مكة يأمر بضرب عنقه، فلما كانت واقعة بدر امتنع من الخروج فأصر عليه أصحابه بالخروج معهم فأخبرهم بمقالة النبي (ص) فأغروه وخدعوه، وقالوا له: لك جمل أحمر لا يُدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه فاستجاب لهم، وخرج لحرب رسول الله (ص) فلما أنكسر جيش المشركين حمل به جمله في جدود من

(١) أسد الغابة ٣/١٩٢.
(٢) مروج الذهب ٢/٢٢٣.

الأرض فأخذه المسلمون، وجاءوا به أسيراً، فأمر علياً بضرب عنقه، فقام إليه وقتله[1] وقد اترعت نفس الوليد بالحقد على النبي (ص) لأنه قد وتره بأبيه، وقد أسلم مع من أسلم من كفار قريش خوفاً من حدا لسيف الذي نزع روح أبيه.

وقد لقبه القرآن الكريم بالفاسق، ويقول المؤرخون والمفسرون: إنه نزلت آيتان في فسقه:

«الأولى»: قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إن جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُم نَادِمِينَ** ﴾ وكان سبب نزول هذه الآية أن النبي (ص) أرسله إلى بني المصطلق لأخذ الصدقة فعاد إليه وأخبره بأنهم منعوه عنها فخرج (ص) إليهم غازياً فتبين له كذبه ونزلت الآية معلنة فسقه.

«الثانية»: قوله تعالى: ﴿ **أفَمَنْ كَانَ مُؤْمناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً** ﴾ وسبب نزولها أنه جرت مشادة بينه وبين الإمام أمير المؤمنين (ع) فقال له الوليد: اسكت أنك صبي وأنا شيخ، والله أني أبسط منك لساناً، وأحدّ منك سناناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له الإمام: اسكت فإنك فاسق، فأنزل الله فيهما هذه الآية، ونظم الحادثة حسان بن ثابت بقوله:

أنزل الله والكتاب عزيز ... في علي وفي الوليد قرآنا
فتبوأ الوليد من ذاك فسقاً ... وعلي مبوؤ إيمانا
ليس من كان مؤمناً عرف الله ... كمن كان فاسقاً خوانا
فعلي يلقى لدى الله عزاً ... ووليد يلقى هناك هوانا
سوف يجزى الوليد خزياً وناراً ... وعلي لا شك يجزى جنانا[2]

---

(١) الغدير ٨/٢٧٣.

(٢) تذكرة الخواص ص ١١٥.

ولما عهد إليه عثمان بولاية الكوفة كان يشرب الخمر جهاراً، وقد دخل قصره وهو ثمل يتمثل بأبيات لتأبط شراً.

ولست بعيداً عن مدام وقينه ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكن أروي من الخمر هامتي وأمشي الملا بالساحب المتسلسل [1]

ويقول الرواة: إنه كان يستمع إلى الغناء ويظل يسمر مع ندمائه ومغنيه سكراناً من أول الليل إلى الصباح، وكان يؤثر بمنادمته صديقاً له من نصارى تغلب هو أبو زبيد الطائي، وقد أنزله داراً على باب المسجد ثم وهبها له فكان الطائي يخرج من منزلهِ حتى يشق الجامع إليه فيسمر عنده ويشرب فيشق المسجد وهو سكران [2] ويقول المؤرخون) إنه شرب الخمر فصلى بالناس وهو ثمل صلاة الصبح أربع ركعات، وصار يقول في ركوعه وسجوده: اشرب واسقني، ثم قاءَ في المحراب وسلم، وقال للمصلين خلفه: هل أزيدكم فقال له ابن مسعود: لا زادك الله خيراً، ولا من بعثك إلينا، وأخذ فروة نعله، وضرب بها وجهه، وحصبه الناس فدخل القصر، والحصباء تأخذه، وهو ثمل مترنح [3].

ومشى بعض خيار أهل الكوفة إلى عثمان يشكون إليه الوليد، وقد حملوا معهم خاتمه الذي انتزعوه من أصبعه أثناء سكره، ولما واجهوا عثمان، وشهدوا عنده بما رأوه من شرب الوليد للخمر، زجرهم عثمان، وقال لهم:

«ما يدريكم أنه شرب الخمر؟».

«هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية».

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٥٦.

(٢) الأغاني ٥/١٢٢، مروج الذهب ١/٣٢٣.

(٣) السيرة الحلبية ٢/٣١٤.

وقدموا له خاتم الوليد الذي انتزعوه منه في حال سكره لتأييد شهادتهم، وغضب عثمان، وقام فدفع في صدورهم، وقابلهم بأخبث القول، وأقساه، فخرجوا منه وانطلقوا إلى الإمام أمير المؤمنين (ع) وأخبروه بما ألمَّ بهم فانبرى إلى عثمان، فقال له:

«دفعت الشهود وأبطلت الحدود؟».

وهدأ عثمان، وخاف من عواقب الأمور فاتجه نحو الإمام قائلاً بصوت خافت:

«ماذا ترى؟».

«أرى أن تبعث إلى صاحبك، فإن أقاما الشهادة في وجهه، ولم يدلِ بحجة أقمت عليه الحد..».

ولم يجد عثمان بداً من الإذعان لقول الإمام فكتب إلى الوليد يأمره بالشخوص إليه ولما وصلت إلى الوليد رسالة عثمان نزح من الكوفة إلى يثرب ولما مثل بين يدي عثمان دعا بالشهود فأقاموا عليه الشهادة فلم يدل بأية حجة، وبذلك خضع لإقامة الحد ولم يتمكن أحد من إقامة الحد عليه خوفاً من عثمان، فقام الإمام أمير المؤمنين (ع) إليه فسبه الوليد: «يا صاحب مكسى»(١) وقام إليه عقيل فرد عليه وسبه، وجعل الوليد يروغ عن الإمام فاجتذبه، وضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، وتميز عثمان غيظاً وغضباً فصاح بالإمام.

«ليس لك أن تفعل به هذا».

فأجابه الإمام بمنطق الشرع قائلاً:

«بلى وشر من هذا إذا فسق، ومنع حق الله أن يؤخذ منه»(٢).

---

(١) المكسى: النقص والظلم.

(٢) مروج الذهب ٢/٢٢٥.

ودلت هـذه البادرة على تهـاون عثمان بحـدود الله، وعدم اكتـراثـه بإقامتها، وعلق الأستاذ العلائلي على هذه البادرة بقوله:

«هذه القصة تضع بين أيدينا شيئاً جـديداً غيـر العطاء الـذي يرجـع إلى مكان العاطفة تضع بين أيدينا صورة من الأغضاء عن مجاوزة السلطة للقانون والأغضـاء في واقعة دينيـة، بحيث يجب على الخليفة أن يكـون أول من يغـار عليهـا وإلاَّ هـدد مكـانـه وأفسح للنـاس مجـال التقـول والتجـريح، وبـالأخص حين جاءت حكـومتـه عقيب حكـومـة عمـر التي عُرفت بالشدة فيما يتعلق بالحدود الـدينية، حتى لـو كان من أقـرب ذوي القربى.

إذن فهذه المبالغة في الأغضاء والصفـح، والمجاوزة لا تـرجع إلى مكـان العاطفـة وحدهـا إن كانت بـل إلى الحـزبيـة أيضـاً حتى تتنـاصـر مجتمعه..»[1]. وعلى أي حال فإن الوليد قد تـرك أثراً سيئـاً في الكوفـة فقد تأثرت بمجونه فكانت سيرته نقطة تحول في هذه المدينة ـ التي كانت تضم الصحابة والتابعين ـ إلى مدينة المجان واللاهين، فقد أغرى الوليـد الناس إلى الاندفـاع نحو المتـع واللهو، وأسست في الكـوفة دور للغنـاء والطرب، وانتشر فيها المجان[2].

٤ ـ عبد الله بن سعد:

وعين عثمان أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح واليـاً على مصـر فمنحه كـافـة الصـلاحيـات، وكـان يبغض النبي (ص) بغضـاً شديداً ويسخر منه، وكان يقول مستهـزءاً بالنبي (ص): إني أصـرفه حيث أريد، وقد أهدر النبي (ص) دمه، فهرب بعد فتـح مكة فـاستجار بعثمـان

---

(١) الإمام الحسين ص ٣٣.

(٢) الأغاني ٢/٣٥١.

فغيبه، وبعدما اطمأن أهل مكة أتى به عثمان إلى النبي (ص) فصمت (ص) طويلاً ثم آمنه وعفا عنه، فلما انصرف عثمان التفت النبي إلى أصحابه، فقال لهم: ما صمت إلَّا ليقوم إليه بعضكم ليضرب عنقه، فقال له رجل من الأنصار: هلا أومأت إليَّ يا رسول الله؟ فقال إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين[1].

وقد ساس عبد الله أهل مصر سياسة عنف وجور وكلفهم فوق ما يطيقون وأظهر الكبرياء والجبروت، فضجروا منه، وأسرع جماعة من خيارهم إلى عثمان يشكون إليه، فبعث إليه رسالة يستنكر فيها سيرته وسياسته في القطر، ولم يستجب ابن أبي سرح لعثمان، وراح ينكل بالناس أشد تنكيل، وعمد إلى من شكاه لعثمان، وراح ينكل بالناس أشد تنكيل، وعمد إلى من شكاه لعثمان فقتله، وشاع التذمر في أوساط المصريين، فشكلوا وفداً كبيراً كان عددهم فيما يقول الرواة: سبع مائة شخص فخفوا إلى عثمان، وقد نزلوا في الجامع وشكوا إلى الصحابة ما صنع بهم ابن أبي سرح فانبرى طلحة إلى عثمان فكلمه بكلام قاسي، وأرسلت إليه عائشة تطالبه بإنصاف القوم، وكلمه الإمام أمير المؤمنين (ع) فقال له:

«إنما يسألك القوم رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً، فأعزله عنهم واقض بينهم، فإن وجب عليه حق فانصفهم منه..» واستجاب ـ على كره ـ للقوم، وقال لهم «اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه» فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر، فكتب عهده إلى مصر ووجه معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بينهم وبين ابن أبي سرح[2] ونزحوا

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٤٠ سنن أبي داود ٢/ ٢٢٠.

(٢) أنساب الأشراف ٥/ ٢٦.

عن المدينة فلما بلغوا إلى الموضع المعروف (بحمسى) وإذا بقادم من يثرب تأملوه فإذا هو ورش غلام عثمان فتفحصوا عنه، وفتشوه وإذا به يحمل رسالة من عثمان إلى ابن أبي سرح يأمره فيها بالتنكيل بالقوم، وتأملوا في الكتاب فإذا به بخط مروان فرجعوا إلى يثرب وقد صمموا على خلع عثمان أو قتله[1].

٥ ـ معاوية بن أبي سفيان:

حينما جاء عثمان إلى السلطة كان معاوية والياً على الشام فأمَره عليها وزاد في صلاحياته، ومهد له الطريق في نقل الخلافة الإسلامية إليه يقول طه حسين:

«وليس من شك في أن عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما أتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان، وتثبيتها في بني أمية فعثمان هو الذي وسع على معاوية في الولاية فضم إليه فلسطين وحمص وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مد له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور الشام أكثر مما أطلقها. فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد بالولاية عهداً، وأقواهم جنداً، وأملكهم لقلب الرعية»[2].

إن عثمان وسع ولاية معاوية، وبسط له النفوذ حتى كان من أقوى الولاة، وأعظمهم نفوذاً، وأصبح قطره من أهم الأقطار الإسلامية وأمنعها، وأكثرها هدوءاً واستقراراً.

(١) حياة الإمام الحسن ١/٢٥٠.
(٢) الفتنة الكبرى ١/١٢٠.

هؤلاء بعض ولاة عثمان، وكلهم من بني أمية وآل أبي معيط، ولم يمنحهم الحكم إلّا إثرة ومحاباة، وتقوية لنفوذ الأمويين وحملهم على رقاب المسلمين.

ونهج عثمان في سياسته المالية منهج عمر[1]، فلم يكن لعثمان منهج خاص في السياسة المالية سوى الذي سنّه عمر، من إيجاد الطبقية وتفضيل بعض الناس على بعض في العطاء.

عطاياه للأمويين:

وخصّ عثمان بني أمية بالأموال، ومنحهم الهبات الضخمة وهي كما يلي:

١ ـ الحارث بن الحكم:

ووهب عثمان الحارث صهره من عائشة ما يلي:

أ ـ ثلاثمائة ألف درهم[2].

ب ـ وهبه إبل الصدقة التي وردت إلى المدينة.

جـ ـ اقطعه سوقاً في يثرب يعرف بنهروز بعد أن تصدق به النبي (ص) على جميع المسلمين[3].

٢ ـ أبو سفيان:

وهب عثمان إلى أبي سفيان رأس المنافقين مائتي ألف من بيت المال[4].

---

(١) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ٢٢.

(٢) أنساب الأشراف ٥/٥٢.

(٣) أنساب الأشراف ٥/٢٨.

(٤) شرح النهج ١/٦٧.

٣ ـ سعيد بن العاص:

ومنح عثمان سعيد بن العاص مائة ألف درهم[1].

٤ ـ عبد الله بن خالد:

وتزوج عبد الله بن خالد بن أسيد بنت عثمان فأمر له بستمائة ألف درهم وكتب إلى عبد الله بن عامر واليه على البصرة أن يدفعها إليه من بيت المال[2].

٥ ـ الوليد بن عقبة:

استقرض الوليد من عبد الله بن مسعود أموالاً طائلة من بيت المال فأقرضه وطلبها منه عبد الله فأبى أن يدفعها ورفع رسالة إلى عثمان يشكوه إليه، فكتب عثمان إلى عبد الله رسالة جاء فيها: «إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال» فغضب ابن مسعود، وطرح مفاتيح بيت المال وقال: «كنت أظن أني خازن للمسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك» وأقام في الكوفة بعد استقالته من منصبه[3].
لقد كان بيت المال في عهد عثمان ملك للأمويين وليس ملكاً للمسلمين.

٦ ـ الحكم بن أبي العاص:

كان الحكم منفياً إلى الطائف من قبل الرسول (ص)، ولما جاء عثمان إلى السلطة أصدر أمراً بالعفو عنه، فقدم إلى يثرب، وهو يسوق تيساً، وعليه ثياب خلقه فدخل على عثمان فكساه جبة خز وطيلسان[4]

---

(١) أنساب الأشراف ٥/٢٨.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/١٤٥.
(٣) الأنساب ٥/٣٠.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤١.

ووهبه أموالاً كثيرة، وولاه على صدقات قضاعة فبلغت ثلاث مائة ألف، فوهبها له[1].

وأدت هباته للحكم إلى ازدياد غضب الجماهير عليه.

٧ ـ مروان بن الحكم:

كان مروان وزيره ومستشاره الخاص وجميع أمور الدولة كانت بيده، وقد منحه الثراء العريض، ووهبه من الأموال ما يلي:

أ ـ أعطاه خمس غنائم أفريقية، وقد بلغت خمس مائة ألف دينار

ب ـ أعطاه ألف وخمسين أوقية من الذهب[2].

جـ ـ أعطاه مائة ألف من بيت المال! فجاءه زيد بن أرقم خازن بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وجعل يبكي فنهره عثمان وقال له: «أتبكي إن وصلت رحمي؟».

«ولكن أبكي لأني أضنك أنك أخذت هذاا لمال عوضاً كما كنت أنفقته في سبيل الله، في حياة رسول الله (ص) لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً».

فصاح به عثمان.

«الق المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك»[3].

د ـ اقطعه فدكا[4].

هـ ـ كتب له بخمس مصر[5].

---

(١) الأنساب ٥/٢٨.

(٢) سيرة الحلبي ٢/٧٨.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١/٦٧.

(٤) تاريخ أبي الفداء ١/١٦٨.

(٥) طبقات ابن سعد ٣/٢٤.

وواصل طلحة بمائتي ألف دينار[1].

ومنح الزبير بن العوام ستمائة ألف.

ووهب أموالاً ضخمة لزيد بن ثابت.

وأما الأراضي التي أقطعها عثمان لبعض الناس فهي كثيرة، وقد شجع جماعة من الطبقة الأرستقراطية إلى شراء أرض العراق الخصبة. فاشترى طلحة ومروان بن الحكم، والأشعث بن قيس[2] ورجال من قبائل العراق حتى شاع الأقطاع.

واصطفى عثمان لنفسه وعياله من بيوت المال ما شاء، ويقول المؤرخون: إنه كانت في بيوت الأموال جواهر ثمينة لا تقدر قيمتها فأخذها، وحلى بها بناته ونساءه[3] وقد بالغ هو بالذات في البذخ والسرف إلى حد لم يألفه المسلمون، فقد بنى له قصراً في يثرب بالحجر والكلس وجعل أبوابه من الساج والعرعر، واقتنى أموالاً، وجناناً وعيوناً بالمدينة[4] وحينما ذكر المؤرخون: إنه كان ينضد أسنانه بالذهب، ويتلبس بأثواب الملوك، وأنفق الكثير من بيت المال في عمارة ضياعهِ ودوره، ولما قتل وجد عند خازنه ثلاثون ألف ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير وصدقات ببراديس وخيبر ووادي القرى ما قيمتها مائتا ألف دينار[5].

إن السياسة المالية التي انتهجها عثمان قد أوجدت طبقتين من الناس الأولى الطبقة الفاحشة في الثراء التي تأكل ولا تعمل، والأخرى

---

(١) تاريخ الطبري ٥/١٣٩.

(٢) خطط الكوفة ص ٢١، الحضارة الإسلامية ١/١٢٣.

(٣) الأنساب ٥/٣٦.

(٤) مروج الذهب ١/٣٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٣/٥٣.

الطبقة الكادحة التي تكد وتتعب في ميادين العمل من أجل أولئك السادة. ومن أجل الحصول على فتات موائدهم.

واشتدت الجماهير في معارضتها لعثمان، وأنكر رجال التقوى والصلاح عليه سياسته التي عادت بالأضرار البالغة على المسلمين، وكان يقابل المعارضين بالضرب والشتم والاحتقار.

يقول المؤرخون: «أمعن عثمان بالتنكيل بالمعارضين، والمنددين بسياسته، فصب عليهم جام غضبه، وبالغ في ظلمهم وإرهاقهم إلى حد بعيد». وفيما يلي بعضهم:

١ ـ أبو ذر الغفاري:

وأبو ذر صاحب رسول الله (ص) وخليله، وهو أقدم أصحابه الذين سبقوا للإسلام، وكان أزهد الناس في الدنيا، وأقلهم احتفالاً بمنافعها، وكان رسول الله (ص) يأتمنه حين لا يأتمن أحداً من أصحابه ويسر إليه حين لا يسر إلى أحد[١] وهو أحد الثلاثة الذين أحبهم الله وأمر نبيه بحبهم كما أنه أحد الثلاثة[٢] الذين تشتاق لهم الجنة[٣].

ولما حمل عثمان بنو أمية وآل أبي معيط على رقاب المسلمين، ومنحهم خيرات البلاد ووظائف الدولة، وقف أبو ذر موقف المسلم المؤمن بدينه فأخذ يندد بسياسة عثمان ويدعوه إلى أن يضع حداً للتدهور الاجتماعي، وقد نهاه عثمان فلم ينته وراح يوالي إنكاره فكان يقف بوجه الذين منحهم عثمان الثراء الفاحش ويتلو قول الله تعالى: ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾

(١) كنز العمال ٨/١٥.

(٢) الثلاثة الذين تشتاق لهم الجنة: الإمام علي وأبو ذر وعمار.

(٣) مجمع الزوائد ٩/٣٣٠.

وغاض ذلك مروان بن الحكم الذي تكدست عنده الأموال الضخمة التي وهبها له عثمان، وقد ضاق ذرعاً بأبي ذر فشكاه إلى عثمان فأرسل إليه ينهاه عن ذلك فأبى أبو ذر وقال: «أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله؟ . . فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي وخير لي من أن أسخط الله برضاه . . » . واستمر أبو ذر في معارضته لسياسة عثمان، فحنق عليه وأمر بنفيه إلى الشام ويقول المؤرخون: إن عثمان سأل حضار مجلسه فقال لهم: «أيجوز لأحد أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضى؟» .

فانبرى كعب الأحبار وكان أحد مستشاري عثمان فأفتاه بالجواز، وصعب على أبي ذر أن يتدخل كعب في أمور الدين وهو يهودي النزعة، ويشك في إسلامه فصاح به:

«يا بن اليهوديين أتعلمنا ديننا؟» .

فغضب عثمان وراح يناصر كعباً فصاح بأبي ذر:

«ما أكثر أذاك؟ وولعك بأصحابي، ألحق بمكتبك في الشام» .

وأمر به فسير إلى الشام فلما انتهى إليها رأى أعمال معاوية القبيحة وبدعه، فجعل ينكر عليه، ويذيع بين الناس مساوىء عثمان، وقد أنكر على معاوية حينما قال: «المال مال الله» فقال له: «المال مال المسلمين» كما أنكر عليه بناءه الخضراء فكان يقول له:

«يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف . . » .

وكان يقول لأهل الشام: «والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله، ولا في سنّة نبيه، والله إني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيى، وصادقاً يكذب وأثره بغير تُقى، وصالحاً مستأثراً عليه»[1] .

---

(١) الأنساب ٥/٥٢ .

ونشط أبو ذر في بث الوعي في صفوف أهل الشام، فأخذ يدعو إلى إنصاف المحرومين، ويحرض الفقراء على استرجاع حقوقهم من الفئة الحاكمة، وخاف معاوية من انقلاب الوضع عليه فنهى الناس عن الاجتماع به، وخاطبه.

«يا عدو الله تؤلب الناس علينا، وتصنع ما تصنع!! فلو كنت قائلاً رجلاً من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين ـ يعني عثمان ـ لقتلتك» فرد عليه قائلاً «ما أنا بعدو لله، ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله أظهرتما الإسلام، وأبطنتما الكفر..». فالتاع معاوية، وكتب إلى عثمان يخبره بخطره عليه ويلتمس منه أن ينقله عنه، فكتب إليه عثمان أن يرسله على أغلظ مركب وأوعره حتى يلقي الجهد والعناء، فأرسله الطاغية معاوية مع جلاوزة لا يعرفون مكانته، ولا يحترمون مقامه، فلم يسمحوا له أن يستريح من الجهد، ومضوا في سيرهم لا يلون على شيء حتى تسلخت بواطن فخذه، ولما انتهى إلى يثرب دخل على عثمان وهو منهوك القوى فاستقبله عثمان بالجفوة قائلاً:

«أنت الذي فعلت وفعلت؟!».

«نصحتك فاستغششتني، ونصحت صاحبك ـ يعني معاوية فاستغشني».

فصاح به عثمان:

«كذبت، ولكنك تريد الفتنة، وتحبها، وقد انغلت الشام علينا».

فوجه إليه أبو ذر نصيحته قائلاً:

«اتبع سنّة صاحبيك ـ يعني أبا بكر وعمر ـ لم يكن لأحد عليك كلام».

فثار عثمان وصاح به.

«مالك ولذلك لا أم لك».

فقال أبو ذر:
«والله ما وجدت لي عذراً إلَّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وصرخ عثمان فقال لمن في مجلسهِ:
«أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب أما أن أضربه أو أحبسه، أو أقتله فإنه خرق جماعة المسلمين أو أنفيه من أرض الإسلام». والتاع الإمام أميرا لمؤمنين (ع) فراح يندد بعثمان ويقول له:
«يا عثمان سمعت رسول الله (ص) يقول؛ «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

ولم يخشَ أبو ذر سلطان عثمان وإنما مضى في دعوته يواصل إنكاره فكان يقول له: «تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى، وتقرب أولاد الطلقاء؟». وأخذ يذيع بين الناس ما سمعه من رسول الله (ص) في ذم الأمويين ومدى خطرهم على الإسلام فكان يقول:
«قال رسول الله (ص): إذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دولاً، وعباد الله خولاً، ودين الله دغلاً..»[1]. واستمر أبو ذر في معارضته لسياسة عثمان حتى مات طريداً غريباً في الربذة.

لقد كان صوت أبو ذر في معركة العدالة مدوياً أبداً، ودفاعه عن قيم الإنسان عظيماً أبداً شديداً لا هوادة فيه ولا لين.

٢ ـ عمار بن ياسر:

إن عمار من الصحابة الذين تبؤا المقاعد الرفيعة عند الله تبارك وتعالى والذين جسدوا من خلال جهادهم المستمر المفاهيم الإلّهية، وحملوا على كاهلهم مهمات صعبة من أجل بناء الحياة وإعمارها، فهو

(١) حياة الإمام الحسن ١/ ٢٥٨.

صاحب النبي (ص) وخليله، لقي في سبيل الإسلام أعظم الجهد، وأقسى البلاء، عذبته قريش مع أبويه أعنف العذاب، استشهد أبواه في سبيل هذا الدين، وقد أشاد القران الكريم بفضله فقد نزلت في حقه الأية الكريمة: ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** ﴾[2].

فالنبي (ص) كان يهتم بعمار اهتماماً كثيراً فكان موضع عنايته وتبجيله، وقد سمع (ص) شخصاً ينال من عمار فتأثر واندفع يقول:

«مالهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عماراً جلده ما بين عيني وأنفي، فإذا بلغ ذلك من الرجل فاجتنبوه»[3].

هذا الصحابي الجليل حينما أنكر على عثمان سياسته أوعز إلى شرطته بأخذه فقبضوا عليه، وأدخلوه إلى منزله فضربه ضرباً مبرحاً حتى غشي عليه وحمل إلى منزل أم المؤمنين السيدة أم سلمة، ولم يفق من شدة الضرب حتى فاتته صلاة الظهرين والمغرب، فلما أفاق قام فتوضأ وصلى العشاء وقال: «الحمد لله ليس هذا أول يوم أوذينا فيه في الله».

ورفع أعلام الصحابة مذكرة لعثمان ذكروا فيها أحداثه ومخالفاته للسنّة، وطالبوه بالكف عنها فأخذها عمار، ودفعها إليه فقرأ صدراً منها عثمان، واندفع نحو عمار فقال له:

- أعلي تقدم من بينهم؟
- إني أنصحهم لك.

---

(١) سورة الزمر: آية ٩ نص على نزولها في عمار القرطبي في تفسيره ٥/ ٢٣٩.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٢٢، نص على نزولها في عمار السيوطي في تفسيره ١/ ٢٣٩.

(٣) سيرة ابن هاشم ٢/ ١١٤

ـ كذبت يا بن سمية.

ـ أنا والله ابن سمية وابن ياسر.

وأمر عثمان جلاوزته فطرحوه أرضاً وأخذ يضربه برجليه على مذاكيره، فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً فأغمي عليه.

إن لعمار مكانة كبيرة عند الله تبارك وتعالى لكن عثمان لم يرع هذه المكانة، فاعتدى عليه وبالغ في تنكيله لأنه أمره بالعدل، ودعاه إلى الحق.

فإذا كان عثمان لم يحمل وزراً فيكفيه وزر عمار.

٣ ـ عبد الله بن مسعود:

وأمعن عثمان في قهر وظلم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، أما سبب ذلك ما أشرنا إليه في إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة، فقد نقم عليه عبد الله حينما استقرض من بيت المال، ولم يؤده إليه، وقد رفع الوليد إلى عثمان أمره فأنكر على ابن مسعود ذلك فاستقال من منصبه، وقفل راجعاً إلى يثرب فلما انتهى إليها كان عثمان على المنبر يخطب فلما رآه خاطب المسلمين وقال لهم: «قدمت عليكم دويبة، من يمشي على طعامه يقيء ويسلح».

ورد عليه ابن مسعود وقال له:

«لست كذلك، ولكني صاحب رسول الله (ص) يوم بدر، ويوم بيعة الرضوان». وأثار كلام عثمان موجة من الغضب والاستياء في المجتمع فاندفعت عائشة تعلن سخطها قائلة:

«أي عثمان أتقول هذا لصاحب رسول الله؟».

وأمر عثمان شرطته بإخراج عبد الله بن مسعود من المسجد، فأخرج منه وهو مهان الجانب، وقام إليه أحد جلاوزة عثمان فاحتمله ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض، فدق ضلعه.

وثار الإمام أمير المؤمنين (ع) فخاطب عثمان:

«يا عثمان أتفعل هذا بصاحب رسول الله (ص) بقول الوليد بن عقبة؟؟». «ما بقول الوليد فعلت هذا، ولكني وجهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة، فقال له ابن مسعود: إن دم عثمان حلال..».

ورد عليه الإمام.

«أحلت عن زبيد على غير ثقة..»[1].

وحمل الإمام ابن سمعود إلى منزله، وقام برعايته حتى تماثل إلى الشفاء، وقاطعه عثمان، وفرض عليه الإقامة الجبرية في يثرب، وقطع عنه عطاءه، ومرض ابن مسعود مرضه الذي توفي فيه فدخل عليه عثمان عائداً فقال له:

- ما تشتكي؟
- ذنوبي.
- ما تشتهي؟
- رحمة ربي.
- ادعو لك طبيباً؟
- الطبيب أمرضني.
- آمر لك بعطائك؟
- منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطينه وأنا مستغني عنه.
- يكون لولدك؟

---

(١) الأنساب ٥/٣٦.

ـ رزقهم على الله.
ـ استغفر لي يا أبا عبد الرحمان.
ـ أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي[1].

وانصرف عثمان والحزن يعلو وجهه، ولم يفز برضاء ابن مسعود ولما ثقل حاله أوصى أن لا يصلي عليه عثمان، وأن يصلي عليه صاحبه عمار بن ياسر، ولما توفي قامت الصفوة من أصحابه بتجهيزه ودفنوه ولم يعلموا عثمان بذلك، فلما علم غضب وقال: سبقتموني فرد عليه عمار: «إنه أوصى أن لا تصلي عليه..».

وقال ابن الزبير:

لأعرفنك بعدا لموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

لقد نقم عليه المعارضون، واشتدوا في معارضته حينما بدل سنّة الله فحمل بني أمية وآل أبي معيط على رقاب المسلمين، وخصهم بالمناصب العليا في الدولة، ووهبهم جميع خيرات البلاد.

يقول العلائلي: فقد شاع التذمر، وعم السخط، وأخذت المجالس والأندية تتحدث عن مظالم عثمان، واستبداده بشؤون المسلمين، وتنكيله بخيارا لمسلمين، وقد اجتمع أهل الحل والعقد فراسلوا جميع الأمصار يستنجدون بهم ويطالبونهم بإرسال الجيوش للقيام بقلب الحكم القائم، وهذا نص مذكرتهم لأهل مصر:

«من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين، أما بعد: إن تعالوا إلينا، وتداركوا خلافة رسول الله (ص) قبل أن يسلبها أهلها فإن كتاب الله قد بدل، وسنّة رسوله قد غيرت وأحكام

---

(١) حياة الامام الحسن ١/٢٥٣ ـ ٢٥٤.

الخليفتين قد بدلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله (ص)، والتابعين بإحسان إلاَّ أقبل وأخذ الحق لنا، وأعطاناه فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح، الذي فارقتم عليه نبيكم، وفارقكم عليه الخلفاء، غلبنا على حقنا، واستولى على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملك عضوض من غلب على شيء أكله[1].

وحفلت هذه المذكرة بذكر الأحداث الخطيرة التي ارتكبتها حكومة عثمان وهي:

١ ـ تبديل كتاب الله، وإلغاء أحكامه، ونبذ نصوصه.
٢ ـ تغيير سنّة النبي (ص) وإهمال تشريعاته.
٣ ـ تبديل أحكام الخليفتين.
٤ ـ استئثار السلطة بالفيء وإنفاقها على رغباتها ومصالحها الخاصة.
٥ ـ صرف الخلافة الإسلامية عن مفاهيمها الخيرة إلى ملك عضوض لا يعني بأهداف الأمة.

واستجاب أخيار مصر لنداء الصحابة فأرسلوا وفداً إلى يثرب لتقصي الحقائق والاطلاع على شؤون الخليفة، ولنفس الغرض أرسلت أقطار أخرى وفودها إلى يثرب والوفود التي أقبلت هي:

أ ـ الوفد المصري:

وأرسلت مصر وفداً تجاوز الأربعمائة شخص كان يرأسهم محمد بن أبي بكر وعبد الرحمان بن عديس البلوي.

(١) الإمامة والسياسة ١/ ٣٥.

ب ـ الوفد الكوفي:

وأرسلت الكوفة وفداً كبيراً بقيادة الزعيم مالك الأشتر، وزيد بن صوحان العبدي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله الأصم العامري ويرأس الجميع عمرو بن الأهثم.

جـ ـ الوفد البصري:

وأرسلت البصرة مائة شخص بقيادة حكيم بن جبلة.

واستقبلت هذه الوفود بكل حفاوة وتكريم، وأخذ الصحابة يشرحون لها أفعال عثمان.

ورأى الوفد المصري أن يرفع مذكرة لعثمان يدعوه فيها إلى التوبة والاستقامة في سياستهِ وسلوكهِ وهذا نصها:

«أما بعد: فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فالله الله، ثم الله الله، فإنك على دنيا فاستقم معها آخرة، ولا تنسى نصيبك من الآخرة، فلا تسوغ لك الدنيا، واعلم إنا لله ولله نغضب، وفي الله نرضى، وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة، أو ضلالة مجلحة مبلجة فهذه مقالتنا لك، وقضيتنا إليك والله عذيرنا منك والسلام..»[1]. واضطرب عثمان، وقرأ الرسالة بإمعان، وقد أحاط الثوار بقصره فبادر إليه المغيرة، وطلب منه الإذن بالكلام معهم فأذن له ولما قرب منهم صاحوا به:

«يا أعور وراءك».

وصاحوا به ثانياً.

«يا فاجر وراءك».

(١) تاريخ الطبري ٥/١١١ ـ ١١٢.

وصاحوا به ثالثاً.
«يا فاسق وراءك».

ورجع المغيرة إلى سيده خائباً، ودعا عثمان عمرو بن العاص وطلب منه أن يكلم القوم، فمضى إليهم وسلم عليهم فلم يردوا عليه السلام لعلمهم بفسقه وفجوره، وقالوا له:

«ارجع يا عدو الله».
«ارجع يا بن النابغة، لست عندنا بأمين، ولا مأمون».
ورجع هو الآخر خائباً.

وعلم عثمان أن لا ملجأ له إلاّ الإمام أمير المؤمنين فاستغاث به، وطلب منه أن يدعو القوم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، فأجابه إلى ذلك بعد أن أخذ منه المواثيق على الوفاء بعهده، ومضى الإمام إلى الثوار وهو يحمل الضمان لجميع مطالبهم، فلما رأوه قالوا له:

«وراءك».
«يقطعون كتاب الله، وتعتبون من كل ما سخطتم عليه».
«أتضمن ذلك؟».
«نعم».
«رضينا».

وأقبل وجوههم وأشرافهم مع الإمام فدخلوا على عثمان فعاتبوه ولاموه على ما فرط في أمور المسلمين، وطالبوه أن يغير سياسته وسلوكه ويعدل بين المسلمين، ويغير جهاز دولته، وطالبوا منه أن يكتب لهم كتاباً بذلك فأجابهم إلى مما أرادوا وكتب لهم هذا الكتاب.

«هذا كتاب من عبد الله عثمان أميرا لمؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين أن لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيه، يُعطى

المحروم، ويؤمن الخائف، ويرد المنفي، ولا يجمر في البعوث، ويوفر الفيء وعلي ابن أبي طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين، على عثمان الوفاء بما في هذا الكتاب».

وشهد فيه كل من الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن مالك بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وسهل بن حنيف وأبو أيوب خالد بن زيد، وكتب ذلك في ذي القعدة سنة (٣٥ هـ) وأخذ القوم الكتاب وانصرفوا إلى جماعتهم، وطلب منه الإمام أمير المؤمنين (ع) أن يخرج إلى الناس ويعلن لهم بتنفيذ طلباتهم ففعل عثمان ذلك فأعطاهم عهد الله وميثاقه أن يسير فيهم بكتاب الله وسنّة نبيه، وأن يوفر لهم الفيء ولا يؤثر به أحداً من أقربائه، وقفل المصريون راجعين إلى بلادهم.

ولم يلبث عثمان وإذا به يصعد المنبر وينقض ما قطعه على نفسه، ويقول المؤرخون إن السبب في ذلك أن مروان الذي كان مستشاراً له ووزيراً، قد دخل عليه فلامه وعذله على ما صنع قائلاً:

«تكلم واعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا، وإن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً، فإن خطبتك تسير في البلاد، قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم فيأتيك من لا تستطيع دفعه..».

لقد كان الأمويون يخططون لكي تبقى نيران الثورة ضد عثمان مشتعلة ولكي يخرج عثمان على يد المسلمين مقتولاً ثم بعد هذا يشهرون سيوفهم بوجه الحاكم الذي سيخلفه متذرعين بالمطالبة بدم الخليفة القتيل.

وارتفعت أصوات الإنكار من جميع جنبات الحفل وهي ذات لهجة واحدة.

«اتق الله يا عثمان».

«اتق الله يا عثمان».

وانهارت أعصابه، وتحطمت قواه فحار في الجواب، ولم يجد بداً من أن يعلن التوبة مرة أخرى عما اقترفه، ونزل عن المنبر، وهو خائر القوى، ومضى إلى منزله(١).

ولما تبين للثوار أنه لم يقلع عن سياسته وأنه جاد في نهجه أحاطوا بداره. وقد رجع إليهم الوفد المصري حينما استبان المكيدة الخطيرة التي دبرت ضده، وقد حاصروا عثمان يهتفون بسقوطه ويطالبونه بالاستقالة من منصبه، وقد أشعل نار الثورة في نفوسهم مروان بن الحكم فقد أطل عليهم، وخاطبهم:

«ما شأنكم؟ كأنكم قد جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه، تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا..».

ونفذ صبر الثوار فعزموا على قتله، وصمموا على تقطيع أوصاله، والتنكيل به.

ونقلت كلمات مروان إلى الإمام أمير المؤمنين (ع) فخف إلى عثمان مسرعاً فقال له:

«أما رضيت من مروان، ولا رضي منك إلاّ بتحريفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الضعينة يقاد حيث يسار به، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه، وأيم الله لأراه سيوردك، ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك، وغلبت على أمرك».

وتركه الإمام، وانصرف عنه، فقالت نائلة زوج عثمان للأمويين:

«أنتم والله قاتلوه، وميتموا أطفاله».

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١١٠.

والتفتت إلى عثمان تنصحه بأن يعزب عن مروان، ولا يطيعه قائلة له: «إنك متى أطعت مروان قتلك».

وشدد الثوار حصارهم على عثمان فمنعوا عنه الماء والطعام، وقد اترعت النفوس بالحقد والكراهية له، وقد جنى هو على نفسه لا طاعته لمروان، وانصياعه لرغبات بني أمية.

واندلعت نيران الثورة، واشتد أوارها فقد أحاط الثوار بدار عثمان، وقد خرج إليهم مروان فبرز إليه عروة بن شييم الليثي فضربه على قفاه بالسيف فخر لوجهه، وقام إليه عبيد بن رفاعة الرزقي بسكين ليقطع رأسه فعذلته فاطمة الثقفية وكانت أمه من الرضاعة فقالت له: إن كنت تريد قتله فقد قتلته، فما تصنع بلحمه أن تبضعه، فاستحي منها وتركه ومشى إليه الناس، وتسلقوا عليه الدار، ولم يكن عنده أحد يدافع عنه فقد ورمت منه القلوب، ونفرت منه النفوس، ورمي بالحجارة وناداه الناس.

«لسنا نرميك الله يرميك؟».

فرد عليهم عثمان.

«لو رماني الله لم يخطأني».

ووقف بعض الأمويين يدافعون عنه، وقد نشب بينهم وبين الثوار قتال عنيف، فقتل منهم من قتل وفر الباقون، بعد ذلك أجهز الثوار على عثمان فقتلوه. ولم يسمح الثوار بموارات جثته، وقال الصفدي: إنهم ألقوه على المزبلة ثلاث أيام(١) مبالغة في تحقيره وتوهينه وتكلم بعض خواصه مع الإمام أميرا لمؤمنين ليتوسط في شأنه مع الثوار في دفنه فكلمهم الإمام فأذنوا في دفنه(٢).

---

(١) تمام المتون ص ٧٩.

(٢) حياة الإمام الحسن ١ / ٢٨١.

وتركت حكومة عثمان كثيراً من المضاعفات السيئة التي امتحن بها المسلمون أشد الامتحان فقد أشعلت نار الفتن في جميع أنحاء البلاد وجرت للأمة الويلات والخطوب.

